حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

طريق العلم ... وأخلاق العلم

بقلم

د. عبدالحكيم الأنيس

إدارة البحوث

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

ISBN: 978-9948-77-774-8

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ دبي
mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

التدقيق اللغوي
سيد أحمد نورائي

دائـــرة الشـــؤون الإســـلامية والعمـــل الخيـــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

طريق العلم... وأخلاق العلم

بقلم

د. عبدالحكيم الأنيس

إدارة البحـــوث

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فيسر «**دائرة الشؤون الإسلامية والعمل لخيري بدبي - إدارة البحوث**» أن تقدّم إصدارها الجديد:

«**طرق العلم... وأخلاق العلم**» إلى جمهور القراء من السادة الباحثين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة.

وهو كتاب يتناول طرقَ تحصيل العلم كما جاء في نصائح العلماء البارعين، وقرائح الأدباء المبدعين، ومنهج الطلب كما بيَّنه عددٌ من العلماء المتبحرين.

ويتناولُ كذلك جوانبَ مهمة من أخلاق العلم، في محاولةٍ لتصحيح واقعٍ لا يناسب الحياة العلمية السليمة.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدّم عظيم الشكر والدعاء لأسرة «**آل مكتوم**» حفظها الله تعالى التي تحبّ العلم وأهله، وتؤازر قضايا الإسلام والعروبة بكل تميز وإقدام، وفي مقدمتها **صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد بن سعيد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي** - رعاه الله- الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي، ويشجع أصحابه وطلابه.

راجين من العلي القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلَّم على النبي الأميّ الخاتم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إدارة البحوث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على الرسول المُعلِّم الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذان فصلان أحسبُهما على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية.

يتناولُ الفصلُ الأولُ في مطلبين:

-طرقَ تحصيل العلم كما جاء في نصائح العلماء البارعين، وقرائح الأدباء المبدعين.

-ومنهج الطلب كما بيَّنه عددٌ من العلماء المتبحرين.

ويتناولُ الفصلُ الثاني جوانبَ مهمة من أخلاق العلم، في محاولةٍ لتصحيح واقعٍ لا يناسب الحياة العلمية السليمة.

واللهُ المرجو أن ينفع بهما، ويسدِّد الراغبين، ويوفِّق الطالبين، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

عبدالحكيم الأنيس

دبي: (٩/ ١١/ ١٤٤٤)
= (٢٩/ ٥/ ٢٠٢٣)

الفصل الأول

المطلب الأول

طرق تحصيل العلم

هذه طاقةٌ فواحةٌ مِنْ نصائح العلماء، وقرائح الأدباء، في الطُّرق المُوصلة إلى العلم حقًّا:

قال يحيى بنُ أبي كثير (ت: ١٢٩): «لا يُستطاع العلمُ براحةِ الجسم»[١].

* . * . *

وروى ابنُ حبّان في «روضة العقلاء»[٢] عن يحيى بن اليمان قال: «سمعتُ سفيانَ [الثوري المتوفى سنة ١٦١] يقول: أولُ العلم الإنصاتُ[٣]، ثم الاستماعُ[٤]، ثم الحفظُ، ثم العملُ به، ثم النشْر».

وروى عن قَبيصة بن جابر قال: «قال سفيان: يُحتاج في العلم إلى أربعة

---

(١) رواه مسلم في «الصحيح» (١/ ٤٢٨).

(٢) (ص: ١٣٠).

(٣) الإنصاتُ هو الاستماع مع ترك الكلام. المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٩٦).

(٤) «الاستماع هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه لفهم، ولهذا لا يُقال: إن الله يَستمع. وأمّا السماع فيكون اسمًا للمسموع، يُقال لما سمعتُه من الحديث: هو سماعي، ويُقال للغناء: سماع، ويكون بمعنى السمع تقول: سمعتُ سماعًا كما تقول سمعتُ سمعًا. والتسمُّع: طلب السمع مثل التعلُّم طلب العلم». الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٨٩).

أشياء: جمعه، ثم حفظه، ثم العمل به، ثم نشره»[1].

وقال ابنُ الساعي في «الدُّر الثمين في أسماء المصنِّفين»[2]:

«قال الشافعيّ [ت: ٢٠٤]: يحتاجُ طالبُ العلم إلى ثلاثة أشياء: طول العمر، وسعة [ذات] اليد، والذّكاء.

وقال: ما شبعتُ منذ ستّ عشرة سنة، لأنّ الشّبع يثقلُ البدن، ويقسّي القلب، ويزيلُ الفطنة، ويجلبُ النّوم، ويُضعفُ صاحبَه عن العبادة.

فانظرْ إلى حكمته في ذكر آفات الشّبع، ثم في جدِّه في العبادة، كيف اطّرحَ الشّبعَ لأجله، ورأسُ القصد تقليلُ الطعام»[3].

وقال الإمامُ الشافعيُّ أيضًا:

«والناسُ في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به.

فحق على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار مِن علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يُدرَكُ خيرٌ إلا بعونه.

فإن مَنْ أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفتْ عنه الرِّيب، ونوَّرتْ في قلبه الحكمةُ، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسألُ الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به مِن شكره بها، أنْ جعلنا خير أمة أخرجت للناس: أنْ

---

(١) روضة العقلاء (ص: ١٣١).

(٢) (ص: ٧٥-٧٦).

(٣) وجاء قول الشافعي هذا في «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٤٢)، و«صفة الصفوة» (٢/ ٢٥٢) وفيه: وحُسن ذات اليد، و«الحِكم الملكية والكلم الأزهرية» للكرمي (ص: ١٣٠).

يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولًا وعملًا يؤدِّي به عنا حقَّه، ويوجبُ لنا نافلة مزيدة»[1].

* * *

وجاء في «فصول الحكماء» للصيّادي[2]: «قال محمد بن الجهم: لا يكون المرءُ عالمًا حتى يكون فيه خمسُ خصال: غريزة محتمِلة للتعلُّم، وعناية تامة، وكفاية قائمة، واستنباط لطيف، ومعلِّم ناصح».

* * *

وروى ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق»[3]، وأورد الذهبيُّ في ترجمة شيخ الإسلام عثمان بن خُرَّزاذ نزيل أنطاكية وعالمها (ت: ٢٨١) في «سير أعلام النبلاء»[4]:

«قال محمد بنُ بركة الحلبي: سمعتُ عثمان بن خُرَّزاذ يقول: يحتاجُ صاحبُ الحديث إلى خمسٍ، فإنْ عُدمتْ واحدةٌ، فهي نقصٌ، يحتاجُ إلى عقلٍ جيدٍ، ودينٍ، وضبطٍ، وحذاقة بالصناعة، مع أمانة تعرفُ منه.

قلتُ [القائل الذهبي]: الأمانةُ جزءٌ من الدين، والضبطُ داخلٌ في الحذق، فالذي يحتاج إليه الحافظُ أنْ يكون تقيًّا ذكيًّا، نحويًّا لغويًّا زكيًّا، حييًّا، سلفيًّا، يكفيه أنْ يكتبَ بيده مئتي مجلد، ويحصلَ من الدواوين المعتبرة خمس مئة مجلد، وأن لا يفتر مِن طلب العلم إلى الممات، بنيةٍ خالصةٍ وتواضعٍ، وإلا فلا يتعنَّ».

* * *

وقال ابنُ الساعي في ترجمة النحوي أبي بكر محمد بن علي المعروف بالمبرمان (ت: ٣٢٦):

---

(١) الرسالة (١/ ١٩).
(٢) (ص: ٣٠).
(٣) (٣٨/ ٤٢٤-٤٢٥).
(٤) (١٣/ ٣٨٠).

«كان يقولُ: لا يحصل العلمُ إلّا بستة أشياء: زمان، وأستاذ، وجدّ، وشهوة، وقريحة جيّدة، وفراغ»[1].

* * *

وأنشد غياث بن محمّد الدِّهِسْتاني لنفسه:

ليس إلى ما تريدُ ما لم ... تلتقِ أسبابُه مساغُ
والعلمُ مِنْ شرطِهِ ثلاثٌ ... المالُ والحرصُ والفراغُ[2]

* * *

وقال ابنُ أبي زيد القيرواني (ت: ٣٨٦) رحمه الله:

«والعلمُ لا يأتي إلا بالعناية والمباحثة والملازمة، مع هداية الله وتوفيقه، قال أبو الدرداء: العلم بالتعلُّم، والحلم بالتحلُّم.

وقال ابنُ المسيَّب: إنْ كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد.

وقد كان يرحلُ إلى المدينة في المسألة الواحدة.

وقد عُني موسى صلى الله عليه في طلب المزيد من العلم إلى ما عنده، وقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وأوصى لقمانُ ابنه بمجالسة العلماء ومزاحمتهم بالرُّكب.

قال مالك: أقمتُ خمس عشرة سنة أغدو من منزلي إلى ابن هرمز، فأقيم عنده إلى صلاة الظهر. مع ملازمته لغيره، وكثرة عنايته.

وأقام ابنُ القاسم متغرِّبًا عن وطنه عشرين سنة في رحلته، ثم لم يرجع حتى مات مالك.

---

(١) الدر الثمين في أسماء المصنِّفين (ص: ١١٥).
(٢) دمية القصر وعُصرة أهل العصر (١/ ٦٣٧-٦٣٨).

وممّا رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «منهومان لا يشبعان: منهومٌ في العلم لا يشبع منه، ومنهومٌ في دنيا لا يشبع منها».

قال ابنُ مسعود: لا يستويان؛ المنهوم في العلم يزداد به خشية الرحمن، والمنهوم في المال يؤديه إلى طغيان.

وفي بعض الحديث: «اللهم لا فقر ينسيني، ولا غنى يطغيني».

وقيل: إنَّ طالب العلم يحتاج إلى البكور فيه، واستدامة الصبر على طلبه، وشدة الحرص عليه، وإذا كان الحريصُ لا يقلع، والمنهومُ لا يشبع، والحوادثُ تحول دون الأمل، فصرفُ الجهد والهمة إلى ما يتعجل بركته، مِن التفقه في دين الله، وتتأجل غبطته من العمل به، أولى من الاستكثار من الأسفار بلا تفقُّه، والتحلي بغير تحقيق.

قال الحسنُ: إن هذا الدين ليس بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال.

قال ابنُ هرمز: ما طلبنا هذا الأمر حقَّ طلبه.

قال غيرُه: وأرجى الناس في نيل ما يبقى مَنْ جدَّ في طلبه، واستدام الصبرَ عليه وأوطنه.

ومما تمثل به سحنون:

أخلقْ بذي الصبر أنْ يحظى بحاجتهِ ... ومدمنِ القرعِ للأبوابِ أنْ يلجا

وتمثَّل غيرُه في حمل الأسفار بلا تفقُّه، فقال:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعرِ
لعمرُك ما تدري المطيُّ إذا غدا ... بأحمالهِ أو راح ما في الغرائرِ[1]

(١) «البيتان من الطويل، لمروان بن أبي حفصة، يهجو قومًا من رواة الشعر، ورواية الأول في ديوانه: «زوامل للأشعار»، ورواية الثاني فيه: «ما يدري =

وكان يُقال: لا يُؤخذ العلم مِن كتبي، ولا القرآن مِن مصحفي.

وإن كانت الكتبُ في آخر الزمان خزائن العلوم؛ فإنَّ مفاتيح مغالقها الصدور، وقد كان العلم في الصدر الأول خزائنه الصدور ولم تكن كتبٌ، وصار في آخر الزمان أكثره في الكتب وأقله في الصدور»[1].

* * *

وقال الخطيبُ البغدادي (ت: ٤٦٣) في كتابه «الفقيه والمتفقِّه»[2]:

«قيل لبعضهم: بمَ أدركتَ العلم؟ فقال: بالمصباحِ، والجلوسِ إلى الصباحِ».

* * *

وقال إمامُ الحرمين الجويني (ت: ٤٧٨):

أَصِخْ لن تنالَ العلمَ إلا بستةٍ ... سأنبيكَ عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وغربةٍ، ... وتلقينِ أستاذٍ، وطولِ زمانِ[3]

= البعير. . بأوساقه». اللغة: زوامل: جمع زاملة، وهو بعير يحمل عليه الرجل متاعه وطعامه، الأباعر: جمع بعير، وهو الجمل البازل، المطي: جمع مطية وهي الناقة التي يركب مطاها أي: ظهرها، الأوساق: جمع وسق وهو حمل بعير، وهو ستون صاعًا، الغرائر: جمع غرارة وهي جوالق التبن.
التخريج: ديوانه ص ٥٨، عيون الأخبار ٢/ ١٣٠، الكامل للمبرد ٣/ ١٣٢، العقد الفريد ٢/ ٤٨٤، الاقتباس من القرآن ٢/ ١٦٩، ١٧٠، الكشف والبيان ٩/ ٣٠٧، أسرار البلاغة ص ١٢٢، عين المعاني ورقة ١٣٤/ أ، تفسير القرطبي ١٨/ ٩٥، اللسان: زمل، البحر المحيط ٨/ ٢٦٣، التاج: زمل». من حاشية في «البستان في إعراب مشكلات القرآن» (٣/ ٤١٠).

(١) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (١/ ٥-٨).

(٢) (٢/ ٢٠٧).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥/ ٢٠٨).

وقد شاع هذان البيتان:

قال ابنُ الجوزي في كتابه «مناقب الإمام أحمد»[1] في ترجمة شيخه الشيخ الفقيه أبي بكر أحمد بن محمد الدّينوري (ت: ٥٣٢): «تفقَّهَ على أبي الخطاب الكَلواذاني، وبرع في الفقه، وتقدَّمَ في المناظرة على أبناء جنسه، حتى كان أسعد المِيْهَني يقول: ما اعترضَ أبو بكر الدينوري على دليل أحدٍ إلَّا ثلَم فيه ثُلْمةً.

وكان يَرِقُّ عند ذكر الصالحين ويبكي، ويقولُ: للعلماء عند الله قدرٌ، فلعل اللهَ أن يَجعلني منهم. وحضرتُ درسَه بعد موت شيخنا أبي الحسن الزاغوني نحوًا مِنْ أربع سنين؛ وأنشدني:

أَصِخ لن تنالَ العلمَ إلا بستةٍ ... سأنبيكَ عن مكنونها ببيانٍ

ذكاءٍ، وحرصٍ، وافتقارٍ، وبُلغةٍ، ... وإرشادِ أُستاذٍ، وطولِ زمانِ».

ونُسِبا إلى الشافعي، ولا تصحُّ هذه النسبة.

* * *

وقال ابنُ رُشْد (ت: ٥٢٠) في «المقدمات المُمَهِّدات»[2]:

«لا يحصل العلمُ إلا بالعناية، والملازمة، والبحث، والنَّصب، والصبر على الطلب:

كما حَكى اللهُ تعالى عن موسى -عليه الصلاة والسلام- أنه قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٩] وأنه قال لفتاه: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ [الكهف: ٦٢].

وقال سعيدُ بن المسيّب: إنْ كنت لأرحلُ في طلب العلم والحديث الواحد

(١) (ص: ٧٠٥).
(٢) (١/ ٤٤).

مسيرة الأيام والليالي. وبذلك ساد أهلَ عصره، وكان يُسمّى سيد التابعين.

وقال مالك -رحمه الله تعالى-: أقمتُ خمس عشرة سنة أغدو مِن منزلي إلى منزل ابن هـرمز وأقيمُ عنده إلى صلاة الظهر. مع ملازمته لغيره وكثرة عنايته، وبذلك فاقَ أهلَ عصره وسُمّي إمام دار الهجرة.

وأقام ابنُ القاسم متغرِّبًا عن بلده في رحلته إلى مالك عشرين سنة حتى مات مالك -رحمه الله-.

ورحل سَحْنون أيضًا إلى ابن القاسم فكان ممّا قرأ عليه مسائل «المدونة»، و«المختلطة»، ودوَّنَها فحصلتْ أصلَ علم المالكيين، وهي مقدمةٌ على غيرها من الدواوين بعد موطأ مالك -رحمه الله».

* * *

وقال ابن رُشْد أيضًا[1]:

«كان العلمُ في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال، ثم انتقل إلى جلود الضأن، وصارت مفاتحُه في صدور الرجال، فلا بدَّ لطالب العلم مِن مُعلِّمٍ يفتحُ عليه ويُطرِّق له.

وقد قال بعضُ الحكماء: العلم يفتقرُ إلى خمسة أشياء، متى نقص منها شيء نقص مِنْ علمه بقدر ذلك، وهي: ذهنٌ ثاقبٌ، وشهوةٌ باعثةٌ، وعمرٌ طويلٌ، وجدةٌ، وأستاذٌ.

وله خمسُ مراتب:

أولها: أنْ تنصت وتسمع.

ثم أنْ تسأل فتفهم ما تسمع.

ثم أنْ تحفظ ما تفهم.

---

(١) في «المقدمات الممهدات» (١/ ٤٩).

ثم أنْ تعمل بما تعلم.

ثم أنْ تعلِّمَ ما تعلمُ».

* * *

وقال الحافظُ الفقيهُ النحويُّ الأديبُ أبو محمد عبدالله بن عيسى الشِّلْبي الأندلسي الأنصاري الخزرجي (ت:٥٤٤):

قد غدا مستأنسًا بالعلمِ مَنْ ... خالطتْه روعةُ المهامِهِ[1]

لا ينال العلمَ جسمٌ رائحٌ ... حُفِّت الجنةُ بالمكارِهِ[2]

* * *

وقال ابنُ الحاجِّ (ت: ٧٣٧) في «المَدْخل»[3] -ومرَّ شبهُهُ في نقل ابن رشد-:

«قال العلماءُ: إنَّ طالبَ العلم يحتاجُ إلى ستة أشياء لا بدَّ له منها، فإنْ نقص منها شيء نقص من علمه بقدر ذلك، وهي: همةٌ باعثةٌ، وذهنٌ ثاقبٌ، وصبرٌ، وجدةٌ، وشيخٌ فتاحٌ، وعمرٌ طويلٌ».

* * *

وقال ابنُ الوردي (ت: ٧٤٩):

اطلب العلمَ ولا تكسلْ فما ... أبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسلْ

واهجر النومَ وحصِّله فمَنْ ... يعرف المطلوبَ يحقرْ ما بذلْ

---

(١) في الأصل: المهابه. وأثبتُّ ما جاء في «طبقات النحاة» المخطوط، نسخة رئيس الكتاب برقم (١١٦١)، (ق ١٨١).

(٢) بغية الوعاة (٢/ ٥١).

(٣) (٢/ ١٨٠).

لا تـقـلْ قـد ذهـبـتْ أربـابُـه كلُّ مَنْ سارَ على الدربِ وصلْ[1]

* * *

وقال الإمامُ ابن هشام النحوي (ت: ٧٦١):

ومَـن يصطبرْ للعلم يظفر بنيله ومَن يخْطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ
ومَن لا يذل النفسَ في طلب العلا يسيرًا يعشْ دهرًا طويلًا أخا ذلِّ[2]

* * *

وقال ابنُ رسلان (ت: ٨٤٤) في «الزُّبد في الفقه الشافعي»[3]:

مَـنْ نَـفـسُـه شريـفـةٌ أبـيَّـهْ يـربـأ عـن أُمُـوره الـدنـيّـهْ
ولم يـزلْ يجـنـحُ لـلـمعـالي يـسـهـرُ فِي طـلابهـا الـلَّـيـالِي

* * *

وقال الشيخُ أحمد زرُّوق (ت: ٨٩٩): «آلاتُ العلم أربعة: عقلٌ رجاح، وشيخٌ فتّاح، وكتبٌ صحاح، ومداومةٌ وإلحاحٌ؛ لأنَّ العلومَ إنْ لم تكن منك ومنها كنتَ بعيدًا عنها.

فمنك بلا منها: جهلٌ وضلالٌ.

ومنها بلا منك: جمودٌ وتقليدٌ.

ومنك ومنها: تحقيقٌ وصوابٌ.

ولذلك قيل: قفْ حيثُ وقفوا ثم فسِّرْ. ثم قشِّرْ. ومَنْ عرَفَ الحقَّ بالرجال

(١) ديوان ابن الوردي (ص: ٤٠٨).
(٢) الدرر الكامنة (٣/ ٩٥).
(٣) (ص: ٣٣٨).

أصبحَ في غاية الجهل والضلال، اعرف الحقَّ تعرفْ أهله»[١].

قلت: وهذا القولُ لسيبويه، جاء في «الكتاب»[٢]: «فقفْ على هذه الأشياء حيثُ وقَفوا، ثم فسِّرْ».

* * *

وقال الإمامُ السيوطي (ت: ٩١١) في كتابه «الحاوي للفتاوي»[٣]، ونقلَه الداوديُّ في «ترجمة العلامة السيوطي»[٤]:

يا مَنْ يرومُ الخوضَ في ذا الفنِّ لا ... تُقدمْ عليه بهمةٍ متقاصرهْ

لا يصلح الإقدامُ فيما رمتَهُ ... حتى تَلججَ في البحارِ الزاخرهْ

وقال في آخر كتابه «تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك»[٥]، ونقله الداوديُّ في كتابه المذكور أيضًا[٦]:

علمُ الحديث كمثلِ بحرٍ زاخرٍ ... فأدمْ له تعَبَ القريحةِ والبدَنْ

أيخوضهُ مَنْ لم يرشَّ بقطرةٍ ... منه ويُنكِرُ ما رواهُ أولو الفِطنْ؟

الصمتُ أولى مِنْ تكلُّمهِ بلا ... علمٍ وأجْدَرُ بالسلامةِ والسَّدَنْ[٧]

* * *

(١) اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد (ص: ٣٤-٣٥).
(٢) (١/ ٢٦٦).
(٣) (٢/ ٢٠١).
(٤) (ص: ٢٨٩).
(٥) (ص: ١٧٢).
(٦) (ص: ٢٩٣).
(٧) السدَن -محركة-: الستر.

وقال الشيخُ العربي المسّاري (ت نحو: ١٢٤٠) يخاطبُ ابنَه لما أتى إلى مدينة فاس:

بُنَيَّ اجتهدْ واقرأ وزاحمْ ونافسِ ... ولا تتجمَّعْ في رحاب المدارسِ
وكنْ باحثًا عن فهم كل عويصةٍ ... بذهنٍ يُرى مستيقظًا غير ناعسِ
وإياك لا تستحي واسألْ لتفهمنْ ... وكنْ ذا اعتناءٍ بالمعاني العرائسِ
وكسِّرْ جموعَ اللهو واصرمْ حبالَها ... وكنْ في جموع الخير أولَ جالسِ
وجانبْ قرينَ السوء والزمْ بِعاده ... فقربُك منه مُوقعٌ في المناحسِ
وإنْ ضحكتْ لك المعاصي بثغرها ... فكنْ -ولدي- في وجهها شرَّ عابسِ
وكنْ متواضعًا لنفسك هاضمًا ... وثوبَ ذميم الكِبر كنْ غير لابسِ
وحافظْ على التقوى وصلِّ بوقتها ... وكنْ بأكف البرِّ أوثقَ حابسِ
فخذها وصايا والدٍ لك ناصحٍ ... تدلُّ على أسنى الخصالِ النفائسِ[1]

* * *

وقال عبدالعزيز الهلالي اللمطي:

وقدِّم الأهمَّ إنَّ العلمَ جَمْ ... والعُمْر طيفٌ زارَ أو ضيفٌ ألمْ[2]

* * *

(١) ديوان العربي المسّاري (ص: ٧٥-٧٦)، وكُتبت القصيدةُ في طالعةِ نسخةٍ من «شرح المحلي على جمع الجوامع» في الخزانة الحسنية في الرباط. انظر: فهرس الكتب المخطوطة في علم أصول الفقه المحفوظة في الخزانة الحسنية (ص: ٩٧-٩٨).

(٢) أنشدنيه الشيخ محمد محمود المصطفى المفتي في دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي. ورأيتُه مضمنًا في «منظومة المباحث الفقهية» للشيخ محنض بابه (ص: ١١٦)، برقم (١٨٩).

وقال الشيخُ عبدالحي الكتاني (ت: ١٣٨٢): «كان شيخنا المحدِّث المُسند أبو علي حسين بن محمد بن حسين الحبشي الباعلوي المكي يقول: ينبغي للطالب أنْ تكون فيه خمسُ خصال: همة مغربية، وأذواق مصرية، وآداب رومية، وقناعة مكية، وزهادة حضرمية»[١].

* * *

وأنشدني الشيخ محمد عبدالله ابن التمين[٢] ممّا يُنشد في المحضرة الموريتانية عندهم للدلالة على طريق أخذ العلم:

كـتْـبٌ إجـازةٌ وحـفـظُ الـرسـمِ ... قـراءةٌ تـدريـسُ: أخـذُ الـعـلـمِ
ومَـن يُـقـدِّمْ رتـبـةً عـن المحلْ ... مـن المـراتـب المـرامَ لم يـنـلْ

* * *

ورأيتُ في أول (مجموعٍ) برقم (٣٢٢ ك) في الخزانة العامة بالرباط:

«للإمام الشافعي [ولا أرى النسبة صحيحة][٣]:

بعشرٍ يُنالُ العلمُ: قوتٍ، وصحةٍ، ... وحـفـظٍ، وفـهـمٍ ثـاقـبٍ في التعلُّمِ

---

(١) الإفادات والإنشادات (ص: ٣٠٢).

(٢) فـي مسـجد الأشـرم بدبـي بعـد صـلاة المغـرب مـن يـوم الأحـد (١٨/ ٤/ ١٩٩٩م).

(٣) ثـم رأيـتُ البيتيـن فـي كتـاب «بلـوغ أقصـى المـرام فـي شـرف العلـم ومـا يتعلـق بـه مـن الأحـكام» للعلامـة أبـي عبداللـه محمـد بـن مسـعود الطرنباطـي الفاسـي (ت: ١٢١٤) (ص: ٤٢٤)، مـن غيـر نسـبة إلـى قائـل معيـن، لكـن جـاءا بعـد بيتيـن نُسِـبا إلـى الشـافعي وهمـا:

نعـم لا تنـالُ العلـم إلا بسـتةٍ ... سـأنبيك عـن أسـمائها ببيـانِ
ذكاء وحـرص واجتهـاد وبلغـةٌ ... وسـيمة أسـتاذ وطـول زمـان».

كذا جاء: وسيمة أستاذ! والمعروف: وصحبة أستاذ.

وحرصٍ، ودرسٍ[1]، واغترابٍ، وهِمّةٍ، وشرخِ شبابٍ، واجتهادِ معلِّم»

* * *

وقال بعضُ العلماء الناصحين[2]: «وأنْ يكون الإنسانُ طالبَ علم: في ذلك فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ وإكرام. وقديمًا قالوا في أمر العلم وشأنه، وأثرِه في النفس ولذته ومتعه: لو كان يعلمُ أبناءُ الملوك ما نحن عليه من اللذة والمتعة في العلم لجالدونا عليه بالسيوف.

فالعلمُ متعةٌ، ولكنْ يحتاج أن يُخلص الإنسانُ إليه، ويعطيه كلَّه، حتى يحرز منه بعضَه، فلذلك هذا العلم يَحتاج من الإخوة الطلبة أنْ يُوجِّهوا وجوهَهم نحوه بكل همّةٍ وإخلاصٍ وتفانٍ، وقد قال بعضُ السلف: مَنْ لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، فلا بُدَّ في طلب العلم أن يكون الإنسانُ محترقًا به حتى يأتي بشيءٍ منه، أمّا إذا كان متوانيًا ملتصقًا بالعلم التصاقًا ضعيفًا، فما أهونَ العلمَ أنْ يبعد عنه، ولا يكون قريبًا منه، لأنَّ العلم هذا ما يمكن أنْ يكون إلا بالسهر والدأب والمواظبة والعشق أو الخوف، وإذا غاب من الإنسان عاملُ العشق للعلم أصبح متاجرًا، فلذلك مِنْ أهمِّ ما ينبغي في طالب العلم أن يكون فيه عشقٌ للعلم، فإذا عشِق العلم بذل له مهجته ووقته وراحته، فجاء مِنْ ذلك بالخير الكثير، وجاء مِنْ ذلك بالمقام الرفيع، وجاء مِنْ ذلك بالغنى الواسع، وقد يكون الإنسانُ في أول الطلب مملقًا، وهذا شأن العلماء:

قلتُ للفقر: أين أنتَ مقيمٌ؟ قال لي: في عمائم الفقهاءِ
إنَّ بيني وبينهم لإخاءً وعزيزٌ عليَّ قطعُ الإخاءِ

---

(١) في المصدر المذكور: ودرس وفكر.

(٢) الشيخ عبدالفتاح الحلبي في محاضرة له، في كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد، في (٢٧/ ٤/ ١٩٨٥م). ونُشرت في مجلة التربية الإسلامية الصادرة في بغداد في أحد أعداد عام (١٩٨٦).

فهذا شيءٌ قديم، يعني الفقر ملاذه العلماء، ولكن في آخر الأمر يرجعُ هذا الفقرُ غنى ماديًّا ومعنويًّا واجتماعيًّا، وهذا يفرضُهُ الطالبُ بنفسه إذا تمثّل بالعلم خلقًا وسلوكًا وتحصيلًا وبذلًا ونفعًا، فهذا يُفرَضُ مِن جانبه على المجتمع، وكان في السلف سالم بن أبي الجعد مولى رقيقًا أعتقه مولاه، قال سالمُ بن أبي الجعد: أعتقني مولاي فقلتُ: بأي الحرف أحترفُ؟ ثم اخترتُ العلم، فما مضى عليَّ سنةٌ حتى جاءني أميرُ المدينة زائرًا فلم آذن له[1].

مِنْ أين جاء هذا؟ مِنْ مقام العلم، مقام العزة، مقام الإضافة إلى الله عز وجل، لأن الإنسان إذا أضيف إلى الله سبحانه بخدمة دينه شَرُفَ بشرف هذا العلم، وشرفِ هذه الإضافة، فلذلك أوصي إخوتي الطلبة بأنْ يُخلصوا النية، وأنْ يبذلوا الجهد الصحيح، وأنْ يكون في نفس كلِّ واحدٍ منهم أن يكون أبا حنيفة مرة ثانية، لأنّ الإنسان إذا كبرتْ همتُهُ جاءتْ بالعظائم، جاءتْ بالمقدَّرات والمستكبرات قدرًا وخطورة.

أمّا إذا كان يطلبُ نجاحًا من مئة علامة، يطلبُ واحدة وخمسين علامة فهذا كما قال:

إذا ما علا المرءُ رامَ العلا ... ويقنعُ بالدُّون مَنْ كان دُونا

فلا يصحُ أن يكون في نفسِ طالبِ العلم رجاءُ النجاح، بل رجاء أن يكون مجتهدًا، إمامًا بفضل وعقل وتقى وبصيرة واستنارة، حتى يأتي طالبَ علم متمكنًا.

فأمّا أن يكون طالبَ نجاح، فهذا ليس ممّا يدلُّ على نبوغِهِ، أو سمُّوه في العلم.

فلذلك أذكِّرُ إخوتي الطلبة أيضًا بأن يكون لديهم عزمٌ وقصدٌ وبذلٌ لأن

(١) أورد هذا الخبر الغزاليُّ في «الإحياء» (١/ ٨)، ونقله عنه المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٤١٦)، وابنُ عابدين في «حاشيته» (١/ ٤١)، وأورده محمد ابن عبدالرحمن الحبيشي في «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» (ص: ١٧٠) نقلًا عن «تنبيه الغافلين» لأبي الليث السمرقندي.

يكون الواحدُ منهم أبا حنيفة الثاني حتى يأتي إمامًا عالمًا كبيرًا مقدّرًا نافعًا، لأنّ الشواغل وقواطع الخير كثيرة، وموانع الخير كثيرة، فإذا عزم على أن يكون من صفوف الأئمة المرموقين جاء في حيّز العلماء المذكورين.

فلهذا أوصي إخوتي الطلبة بأن يكون لديهم الإخلاص في تحصيل العلم، والتفاني فيه، والحرص عليه، والتوفر له تمامًا، فإذا ما حصلتْ مثلُ هذه المقاصد والعزائم من القلب صدقًا وفعلًا جاء العلمُ، وجاءَ الفضلُ، وجاءَ المقام، وجاءَ الغنى، وزال الفقرُ، وهذا شيءٌ مألوف، وقد قال بعضُ السلف: جلَّ ربُّنا أن يعامله العبدُ نقدًا فيعامله نسيئة.

وهنا في «كلية الشريعة» يعرفون النسيئة، ويعرفون أنَّ الربا حرام، فيقول الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري في «حِكمه»: «جلَّ ربنا أنْ يعامله العبدُ نقدًا فيعامله نسيئة».

يعني: إذا أخلصَ الإنسانُ، وبَذَلَ قصده وجهده وقلبه في تحصيل العلم جاءه من الله عز وجل عونٌ وتقديرٌ وتكريمٌ فورًا، لأنَّ هذا أمر لا يتأخرُ عند الله عزَّ وجلَّ، لأن خزائن الله ملأى لا ينقصها شيء.

فلهذا ينبغي للإخوة الطلبة الاهتمامُ بهذا العلم، وأن يشعروا بأن كلَّ واحد منهم هو المسؤول عن هذا العلم، وإشاعته وإعاشته في الناس.

وكيف يُنشر هذا العلم؟ إن نُشر العلم ليس بكثرة الكتب، وإنما هو بالتطبُّع به، والتمسُّك به سلوكًا وعملًا واعتقادًا وتنفيذًا، فإذا ما مشى الإنسانُ هكذا تبعه الناسُ شاء أو أبى، ننظر مثالًا بسيطًا: الإنسان إذا تطيّب بطيب فواح كهذا الذي يُقال له هُنا «قداح» مثلًا.

هذا إذا مرّ بالناس لا بُدَّ أن يُلزمهم أنْ يتوجهوا إلى جهة الطِّيب، لأنَّ خياشيمَهم ملأها هذا الطِّيبُ الفوّاحُ الجميلُ، فالانتباه القَسْريُّ يُحوِّلهم إليه باعتباره طِيبًا، وقد يكون هذا الطِّيبُ على مَنْ لا يحبون، ولكنه بطبيعته يَلفتُ إلى هذا الذي يتطيَّبُ به قسرًا، فكذلك طالبُ العلم، إذا تمثّل بالعلم خلقًا وسلوكًا

وعملًا وتنفيذًا توجّه الناسُ إليه قسرًا، وأحبوه جبرًا، لأن مِنْ طبيعة الإنسان أنْ يحبَّ الفضيلة، أنْ يحب القوة، والعلم قوة، أن يحبَّ المكانة المرموقة، والعلمُ مكانةٌ ليس بعدها مكانة.

فلهذا إذا أخلص الطالبُ، وحصّل العلمَ، وتمثَّل به سلوكًا، وتمثّل به عملًا، فصار قدوة مِنْ نفسه لنفسه، ثم للناس، فلا بدَّ أن يتبعه الناس، ويكون لهم كما قال [القائل]:

إنّ الملوكَ ليَحكمونَ على الورى وعلى الملوك لتَحكمُ العلماءُ[1]

فيقع مقامُه فوق مقام أهل الحكم، لأنَّ العلم سلطانُهُ على القلوب والعقول، أما الحكم فقد يكون سلطانه على العظام والأكتاف فقط، والقلوبُ ليستْ تمالئه، أمّا العلم فالقلوبُ تمالئه أولًا، فتتوجه إليه الوجوهُ والأبصارُ.

فلهذا العالِمُ سيفُهُ وسلطانهُ أقوى مِنْ سلطان الحاكم، لأنَّ الحاكم يتولى على الأشباح، ولكن العالم يتولى على الأرواح، والأرواح هي المنبعثة الباعثة.

فلهذا إذا تمكَّن طالبُ العلم مِنْ أن يكون طالبَ علم حقيقيًا يقتدي بالسلف الصالح أسوة، تحصيلًا، تعليمًا، بذلًا، نفعًا، احتواءً للناس، خدمةً لهم، تواضعًا لهم، نصحًا للحكام، أمرًا بمعروف، نهيًا عن منكر، - تحت سلطان العقل والبصيرة والاستنارة والتصرف الحسن والحكيم- لا بدَّ أن يأتي منه الخيرُ الكثيرُ، ويكون حينئذٍ قدوةً لبلده، وأهله، والناس أجمعين».

* * *

(١) مِنْ بيتين قالهما الحسين بن إبراهيم النطنزي (ت: ٤٩٩). انظر: «خريدة القصر» قسم شعراء فارس (١/ ٢٤١)، و«الوافي بالوفيات» (١٢/ ٣١٩)، ومثله ولكن نثرًا في «الوافي بالوفيات» أيضًا (١٦/ ٥٣٧). ونص البيتين:

العزُّ مخصوص به العلماءُ ما للأنام سواهم ما شاءُوا
إنَّ الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماءُ

وبعد: فأوصي مَنْ أراد العلمَ النظر في الكتب الآتية:

- روضة العقلاء، لأبي حاتم ابن حبّان البستي.
- الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعهِ، لأبي هلال العسكري.
- أدب الدين والدنيا، للماوردي.
- لفتة الكبد في نصيحة الولد، لابن الجوزي.
- الحثّ على حفظ العلم وذكر كبار الحُفّاظ، لابن الجوزي.
- حفظ العُمر[1]، لابن الجوزي.
- تنبيه النائم الغُمر على مواسم العُمر، لابن الجوزي.
- قصيدة «العالم الأبي»، للجرجاني.
- قصيدة «عنوان الحِكم»، للبُستي.
- قصيدة أبي إسحاق الألبيري الأندلسي المتوفى نحو سنة (٤٦٠) التائية. ضمن «الجامع للمتون العلمية»، و«مجموع الأبيات والمنظومات لتقريب المحفوظات».
- نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقتهم السخيف، لمحمد بن عبدالرحمن، جمال الدين الحبيشي الوَصَابي الشافعي (ت: ٧٨٦).
- الرسالة الجامعة لوصف العلوم النافعة، لطاشكبري زاده.
- الدُّر النضيد في أدب المُفيد والمُستفيد، للغزي.
- بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، للعلامة أبي عبدالله محمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي (ت: ١٢١٤). لا سيما (الباب الخامس في آداب المتعلِّمين).

---

(١) صواب العنوان: مبادرة العمر.

- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل.
- نصائح منهجية لطالب علم السُّنة النبوية، للدكتور حاتم بن عارف العوني[١].
- تكوين الذهنية العلمية: دراسة نقدية لمسالك التلقي في العلوم الشرعية بقلم محمد بن حسين الأنصاري[٢].
- معالم إرشادية لصناعة طالب العلم، للشيخ محمد عوامة[٣].
- معالم في طريق طلب العلم، تأليف الشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان[٤].
- الإلماع في مرقاة التجديد والإبداع، للدكتور يوسف العيساوي[٥].

وغيرها[٦]

* * *

(١) ط دار عالم الفوائد، مكة، ط١ (١٤١٨).
(٢) ط دار الميمان، الرياض، ط١ (١٤٣٣-٢٠١٢).
(٣) ط دار المنهاج، جدة، ط١ (١٤٣٤-٢٠١٣).
(٤) ط دار القبس، الرياض، ط٧ (١٤٣٤- ٢٠١٣).
(٥) ط دار الصميعي، الرياض، ط١ (١٤٤٠-٢٠١٩).
(٦) ومِنْ كتب المنهج: طراز الذهب في أدب الطلب لأبي سعد السمعاني (ت: ٥٦٢). مئة وخمسون طاقة. طبقات الشافعية الكبرى (٧/ ١٨٢).

المطلب الثاني

منهج الطلب

مِنْ أهم الأشياء للطالب أنْ يكون له منهجٌ يمشي عليه، ويتدرّجُ في الطلب على أساسه، وإنما يُؤخَذُ هذا من العلماء المُجرِّبين المتبحّرين، وقد وقفتُ على عددٍ من المناهج المقترحة، وضعها الغزالي، -وللزَّبيدي شارح «الإحياء» تعليقٌ وإضافةٌ على ما قاله-، ثم ابن الجوزي، ثم الشوكاني من المتأخرين، وقد أفاد الغزالي كثيرًا بإرجاع المراحل إلى ثلاث: الاقتصار، والاقتصاد، والاستقصاء، ورأيتُ من المفيد عرضَ هذه المناهج، وهذه هي:

- قال الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين»[1]: «... فاشتغلْ بفروضِ الكفايات، وراعِ التدريج فيها:

فابتدئْ بكتابِ الله تعالى.

ثم بسُنّةِ رسولِ الله ﷺ.

ثم بعلمِ التفسيرِ، وسائرِ علومِ القرآن، مِنْ علم الناسخ والمنسوخ، والمفصول والموصول، والمحكم والمتشابه.

---

(١) (١/ ٤٠).

وكذلك في السُّنة[١].

ثم اشتغلْ بالفروع، وهو علمُ المَذهب مِنْ علم الفقه دون الخلاف.

ثم بأصول الفقه[٢].

وهكذا إلى بقية العلوم، على ما يتسع له العمرُ، ويساعدُ فيه الوقتُ، ولا تستغرقْ عمرَك في فنٍّ واحدٍ منها طلبًا للاستقصاء؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ، والعمرَ قصيرٌ، وهذه العلوم آلاتٌ ومقدماتٌ، وليستْ مطلوبةً لعينها، بل لغيرها، وكلُّ ما يُطلب لغيره، فلا ينبغي أنْ يُنسى فيه المطلوب، ويُستكثر منه.

فاقتصرْ مِنْ شائع **علم اللغة** على ما تفهمُ منه كلامَ العرب، وتنطقُ به[٣].

ومِنْ **غريبه** على غريب القرآن، وغريب الحديث، ودع التعمُّق فيه[٤].

واقتصرْ من **النحو** على ما يتعلق بالكتاب والسُّنة[٥].

فما مِنْ علم إلا وله: **(اقتصار)، و(اقتصاد)، و(استقصاء)**.

---

(١) ذكر الزَّبيدي مؤلَّفاتٍ في علم الناسخ والمنسوخ، والمفصول والموصول، والمحكم والمتشابه في القرآن والسُّنة. انظر الإتحاف (١ / ٤٣٠ - ٤٣١).

(٢) قال الزَّبيدي في «الإتحاف» (١ / ٤٣٢): «من الكتب المتوسطة فيه: «المنار» للنسفي، و«جمع الجوامع» لابن السبكي، و«المنهاج» للبيضاوي».

(٣) قال الزَّبيدي في «الإتحاف»: (١/ ٤٣٢): «فعليك بمطالعة «مختصر الصحاح» للرازي، و«المصباح» للفيومي، وإنْ أردتَّ الزيادة، فلا تعدونْ عيناك عن «الصحاح» للجوهري، أو «العُباب» للصاغاني، أو «المُجمل» لابن فارس، وإنْ أردتَّ الزيادة فـ «القاموس المحيط» للفيروزآبادي الجامع للغات العرب فصيحه وغريبه وحواشيه، أو «التهذيب» للأزهري، أو «المحكم» لابن سيدَهْ».

(٤) ذكر الزبيدي مؤلَّفات في غريب القرآن والحديث. الإتحاف (١/ ٤٣٢).

(٥) قال الزَّبيدي (١/ ٤٣٣): «بقراءة كتابٍ صغيرٍ فيه كـ «مقدمة» الآجرومية مثلًا، وإنْ أردتَّ الزيادة فيه فـ «الكافية» لابن الحاجب، أو «الألفية» لابن مالك، ثم مراجعة شروح كلٍّ من ذلك...».

ونحن نشيرُ إليها في الحديث، والتفسير، والفقه، والكلام، لتقيس بها غيرها:

فالاقتصارُ في **التفسير** ما يبلغ ضعفَ القرآن في المقدار، كما صنَّفه عليٌّ الواحدي النيسابوري، وهو: «الوجيز».

والاقتصادُ ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن، كما صنَّفه من «الوسيط» فيه.

وما وراء ذلك استقصاءٌ مُستغنى عنه، فلا مردَّ له إلى انتهاء العمر(١).

وأمّا **الحديثُ** فالاقتصارُ فيه تحصيلُ ما في «الصحيحين» بتصحيح نسخةٍ على رجلٍ خبيرٍ بعلم متن الحديث.

وأمّا حفظُ أسامي الرجال، فقد كُفيتَ فيه بما تحمَّله عنك مَنْ قبلك، ولك أنْ تعوِّل على كتبهم، وليس يلزمك حفظُ متون الصحيحين، ولكنْ تحصِّله تحصيلًا تقدرُ منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة.

وأمّا الاقتصادُ فيه فأنْ تضيفَ إليهما ما خرج عنهما ممّا وردَ في المسندات الصحيحة(٢).

وأمّا الاستقصاءُ فما وراء ذلك إلى استيعاب كلِّ ما نُقل من الضعيف، والقويِّ، والصحيح، والسقيم، مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال، وأسمائهم وأوصافهم.

وأمّا **الفقه** فالاقتصارُ فيه على ما يحويهِ «مختصر» المُزَني رحمه الله، وهو الذي رتَّبناه في «خلاصة المختصر».

---

(١) قال الزَّبيدي (١ / ٤٣٣): «هذا الذي ذكرَه بالنظر إلى زمانه، وأمّا الآن فلا يُعرف من تلك الكتب شيء، فالاقتصارُ الآن فيه: «تفسير» الجلالين، والتوسطُ فيه «تفسير» الخطيب الشربيني، و«تفسير» ملا علي [القاري الهروي المكي الحنفي المتوفى سنة ١٠١٤]، ومَنْ أرادَ الزيادة فيه فـ «تفسير» أبي السعود، و«المدارك» للنسفي، و«تفسير» القاضي البيضاوي».

(٢) «أي كبقية السُّنن الأربعة، والمستخرج عليهما للحافظ أبي نُعيم، وللإسماعيلي، ولابن منـدَهْ». الإتحاف (١ / ٤٣٤).

والاقتصادُ فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله، وهو القدرُ الذي أوردناه في «الوسيط من المذهب».

والاستقصاءُ ما أوردناه في «البسيط»، إلى ما وراء ذلك من المطولات[1].

وأمّا **الكلام** فمقصودُهُ حمايةُ المعتقدات التي نقلها أهلُ السنة من السلف الصالح لا غير، وما وراء ذلك طلبٌ لكشف حقائق الأمور مِنْ غير طريقتها.

ومقصودُ حفظ السنة تحصيلُ رتبة الاقتصار منه بمعتقدٍ مختصرٍ، وهو القدر الذي أوردناه في كتاب «قواعد العقائد» مِن جملة هذا الكتاب[2].

والاقتصادُ فيه ما يبلغ قدر مئة ورقة، وهو الذي أوردناه في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد»[3]، ويحتاج إليه لمناظرةِ مبتدعٍ ومعارضةِ بدعتهِ بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي».

* * *

وقال الإمام ابن الجوزي في كتابه «**منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**»[4]: «بيان الكتب المهمة لطالب العلم»:

فأمّا الاقتصارُ في **الأصول**[5] فالاعتمادُ فيه يصلُحُ على ما رتَّبناهُ في كتاب «منتقد المعتقد».

وأبسطُ منه ما رتَّبناه في كتاب: «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، ولا يصلُحُ ما يزيدُ على ذلك.

---

(١) نقل الزَّبيدي في «شرحه» في هذا الموضع عن «إرشاد القاصد» الكتب المختصرة، والمتوسطة، والمبسوطة، في المذاهب الأربعة، فانظرْ ما نقلَ وما علَّق على ما نقلَ، فإنه مهمٌّ جدًّا. (١ / ٤٣٦).

(٢) يعني إحياء علوم الدين.

(٣) بيَّن الزَّبيدي (١/ ٤٣٧) الكتبَ التي يُشتغل بها في ذلك في زمنه.

(٤) (١/ ٤٦ - ٥٠).

(٥) أي أصول الدين.

وأمّا الاقتصار في **النحو** فيصلُحُ الاعتمادُ فيه على «اللمع»، وكتابِ الجرمي.

وإذا اتَّسعَ الزمانُ لما يَزيدُ على ذلك من الكتب التي هي أكثرُ مِن ذلك، فلا بأس.

وأمّا **اللغة**: فينبغي الاعتمادُ منها على معرفة ما في كتابِ الله عز وجل، وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وكلام السَّلفِ، ويكفي في ذلك كتابُ: «الغريبين» للهَرَوي.

وممّا يُفْتَقَرُ إلى معرفته في الكلام الدائر بين الناس كتابُ: «إصلاح المنطق»، و«أدبُ الكاتب»، و«معرفة ما يلحنُ فيه العوامُّ»، وفي كتابنا المُسمّى بـ «تقويم اللسان» كفايةٌ في ذلك.

وأمّا الاقتصارُ في **التفسير**، فيصلُحُ الاعتمادُ فيه على كتابنا المُسمّى بـ «تذكرة الأريب في غريب الغريب [كذا]».

وأمّا الاقتصادُ فيه فيصلُحُ الاعتمادُ فيه على كتابنا المُسمّى بـ «زاد المسير في علم التفسير».

وأما الاستقصاء فيه، فيصلُحُ الاعتماد فيه على كتابنا المُسمّى بـ «المغني في التفسير»، وما وراء ذلك لا منتهى له.

وأمّا **الحديث**: فاعتمدْ على الصَّحيحَين، وقد لخص متونَهما أبو عبدالله الحُميدي فأحسنَ، وقد فسَّرناهما في كتابنا المُسمّى بـ «الكشف لمشكل الصحيحين».

فإنْ شئتَ أنْ تُضيف إلى ذلك زيادةً، ففي كتابنا المُسمّى بـ «الحدائق» مقصودُك.

وإذا أردتَّ الزيادة، فطالعْ مسند الإمام أحمد رحمه الله، وسنن أبي داود رحمه الله، وكتابُنا «الجامع للمسانيد» عَلَّه يُغني عن غيره.

وأما الاستقصاء، فهو الذي لا يسعُه العمرُ من معرفةِ الرجالِ وأسمائِهم، وجرحِهم وتعديلِهم، واستيعابِ الطرق، وكلُّ ذلك فضيلةٌ في حقِّ كُلِّ

شخصٍ، ولو أنَّ العمرَ يتسعُ كنّا أمرنا بالاقتصاد[1] في شيء من هذه العلوم؛ لأنَّ الزيادة فيها مطلوبة، غير أنَّ العمر يضيقُ، فمتى صحَّ التزيُّدُ مع إحكامِ الأصولِ المتعلقةِ بتهذيب النفس، فذلك الغاية.

وأمّا **الفقهُ**: فالاقتصارُ فيه على كتابنا المُسمّى بـ «أسباب الهداية لأرباب البداية»، فإنا قد أشرنا فيه إلى العبادات الخمس.

فمَنْ أرادَ الاطلاع على ما يزيدُ على ذلك، فكتابنا المُسمّى بـ «المُذْهَب في المَذهب».

فمَنْ أراد الاطلاع على ما يزيدُ على ذلك، فكتاب الخِرَقي.

فإنْ أراد أكثر من ذلك فكتاب «الهداية» لأبي الخطاب.

ومَنْ طلب الاستقصاء فعليه بكتاب «الفصول»، لابن عقيل رحمه الله.

وأمّا **علمُ الخلافِ والمناظرة**، فقد رتّبنا فيه كتبًا منها «جنّة النظر»، ومنها «الدلائل الزواهر في المسائل الظواهر»[2]، فمَنْ حَسُنَ قصدُهُ لمعرفة الدليل، فلا بأس له بالمناظرة، وقد كان السلف رضي اللهُ عنهم يقصدون بالنظر استخراجَ الحقِّ، والاطلاعَ على علل الشرع، فأحدثَ المتأخرون الجدلَ الذي يبعدُ عن ذوقِ الفقه، ويَخْرُجُ إلى المنافسةِ والمباهاةِ».

* * *

وقد تكلَّمَ الشوكاني على منهج الطلب كلامًا مفصّلًا، وقسَّم أربابَ الطلب إلى أربع طبقات، وبدأ بأعلاها، ثم نزل إلى الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، وأوردُ كلامَه مع اختصارٍ، وقد أنزلُ بعضه إلى الحاشية، وأرجو أنْ يرجعَ إليه مَن أراد مزيدًا من الفائدة.

---

(١) كذا في المطبوع، والسياق يقتضي: بالاستقصاء.

(٢) ما ذكره ابنُ الجوزي لنفسه من الكتب مطبوعٌ متداولٌ، إلا: منتقد المعتقد، ومنهاج الوصول، والمُغني، وأسباب الهداية، والمُذهب، وجنّة النظر، والدلائل الزواهر.

قال رحمه الله في كتابه «أدب الطلب ومنتهى الأدب» [1]:

«أمّا أهلُ **الطبقة الأولى** التي هي في أرفع مكان، وأعزِّ محل يرتقي إليه علماءُ الشريعة ... فينبغي لَمَنْ تصوَّرَ الوصولَ إليها، وقصَدَ الإدراكَ لها، أنْ يشرع بعلم النحو مُبتدئًا بالمختصرات كـمنظومة الحريري المُسمّاة بـ «الملحة»، وشروحِها، فإذا فهمَ ذلك وأتقنَهُ، انتقل إلى «كافية» ابن الحاجب وشروحِها، و«مغني اللبيب»، وشروحِه[2].

واعلمْ أنه لا يَستغني طالبُ العلم المتصوّرُ المتبحّرُ في علم الشريعة العازمُ على أن يكون من أهل الطبقة الأولى عن إتقان ما اشتمل عليه «شرحُ الرضي على الكافية» من المباحث اللطيفة، والفوائد الشريفة، وكذلك ما في «مغني اللبيب» من المسائل الغريبة.

ويكون اشتغالُه بسماع شروح المختصرات بعد أن تكون هذه المختصراتُ محفوظةً له حفظًا يُمليه عن ظهر قلبٍ، ويبديه مِن طرفِ لسانه، وأقلُّ الأحوال أنْ يحفظ مختصرًا منها هو أكثرُها مسائلَ وأنفعُها فوائدَ.

ولا يفوته النظرُ في مثل «الألفية» لابن مالك، وشروحها، و«التسهيل»

---

(١) (ص: ١٣٦ - ١٧٦).

(٢) قال الشوكاني هنا: «هذا باعتبار هذه الديار اليمنية، إذا كان طالبُ العلم فيها، لأنه يجد شيوخَ هذه المصنَّفات، ولا يجد شيوخَ غيرها من مصنَّفات النحو إلا باعتبار الوجادة، لا باعتبار السماع، فإذا كان ناشئًا في أرضٍ يشتغلون فيها بغير هذه المصنَّفات، فعليه الاشتغال بما اشتغل به مشايخُ تلك الأرض، مُبتدئًا بما هو أقربُها تناولًا منتهيًا إلى ما هو النهاية للمشتغلين بذلك الفنِّ وذلك القطر، فاعرفْ هذا، واعلمْ أنَّ ما أسمّيه هاهنا إنما هو باعتبار ما يَشتغل به الناسُ في الديار اليمنية، فمَنْ كان في غيرها، فليأخذ عن شيوخها في كل فنٍّ مقدارًا يوافقُ ما أذكرُه هنا». ومِن قبلُ قال الزَّبيدي بعد أن نقل كتب المذاهب الأربعة: «هذا كلُّه يختلفُ باختلاف البلدان في المذاهب، فرُبَّ كتاب يكون كثير الاستعمال والانتفاع في بلد، لم يشتهرْ في بلد آخر، وهذا ظاهرٌ». الإتحاف (١ / ٤٣٦).

وشرحه، و«المُفصّل» للزمخشري، و«الكتاب» لسيبويه، فإنه يجدُ في هذه الكتب مِنْ لطائف المسائل النحوية ودقائق المباحث العربية ما لم يكن قد وجدَه في تلك.

وينبغي للطالب المذكور أنْ يطَّلعَ على مختصرات المنطق، ويأخذَه عن شيوخه، ويفهم معانيه بعد أن يفهم النحو بفهم[1] ما يبتدئُ به من كتبه، ليستعيَن بذلك على فهم ما يُوردُه المُصنِّفون في مطولات كتب النحو ومتوسطاتها من المباحث النحوية، ويكفيه في ذلك مثلُ المختصر المعروف بـ «إيساغوجي»، أو «تهذيب» السعد، وشرح مِن شروحهما، وسيأتي بيانُ ما ينبغي الاشتغال به مِنْ فنِّ المنطق إن شاء الله، وليس المراد هنا إلا الاستعانة بمعرفة مباحث التصوّرات والتصديقات إجمالًا؛ لئلا يعثرَ على بحثٍ من مباحث العربية من نحوٍ أو صرفٍ أو بيانٍ قد سلك فيه صاحبُ الكتاب مسلكًا على النمط الذي سلكه أهلُ المنطق فلا يفهمه، كما يقعُ كثيرًا من الحدود والإلزامات، فإنَّ أهلَ العربية يتكلَّمون بذلك بكلام المناطقة، فإذا كان الطالبُ عاطِلًا عن علم المنطق بالمرَّة لم يفهمْ تلك المباحث كما ينبغي.

ثم بعد ثبوت الملكة له في النحو -وإنْ لم يكن قد فرغ مِن سماع مَن سمّيناه- يشرعُ في الاشتغال في علم الصرف، كـ «الشافية» وشرحها، و«الريحانية»، و«لامية الأفعال»، ولا يكون عالمًا بعلم الصرف كما ينبغي إلا بعد أنْ تكون «الشافية» مِنْ محفوظاته، لانتشارِ مسائلِ فنِّ الصرفِ، وطولِ ذيلِ قواعدِهِ، وتشعُّبِ أبوابه، ولا يفوتُه الاشتغالُ بـ «شرح الرضي» على «الشافية» بعد أنْ يشتغلَ بما هو أخصرُ منه مِنْ شرحها كـ «شرح» الجاربردي، ولطف الله الغياث، فإنَّ فيه من الفوائد الصرفية ما لا يوجدُ في غيره.

ثم ينبغي له بعد ثبوت الملكة له نحوًا وصرفًا -وإنْ لم يكن قد فرغ مِنْ سماعِ كتبِ الفنَّين- أنْ يشرعَ في علم المعاني والبيان، فيبتدئ بحفظ مختصرٍ من مختصرات الفنِّ يشتملُ على مهمات مسائله، كـ «التلخيص»، و«شرح» السعد المختصر، وما عليه من الحواشي، وشرحه «المُطول»، وحواشيه، فإنه إذا حفظَ

(١) في الأصل: يفهم.

هذا المختصرَ وحقَّقَ الشرحين المذكورين وحواشيهما بلغَ إلى مكانٍ من الفنِّ مكينٍ، فقد أحاطت هذه الجملةُ بما في مؤلَّفات المتقدِّمين مِنْ شراح «المفتاح» ونحوه، وإذا ظفرَ بشيء من مؤلَّفات عبدالقاهر الجرجاني، والسكّاكي في هذا الفنِّ، فليمُعن النظر فيه، فإنه يقفُ في تلك المؤلَّفات على فوائد.

وينبغي له حالَ الاشتغال بهذا الفنِّ أنْ يشتغلَ بفنونٍ مختصرةٍ، قريبةِ المأخذ، قليلةِ المباحث، كفنِّ الوضع، وفنِّ المناظرة، ويكفيه في الأول «رسالةُ الوضع»، وشرحٌ مِنْ شروحها، وفي الثاني «أدبُ البحث» العضدية، وشرحٌ مِنْ شروحها[1].

وكما تشعَّبتْ مباحثُ علم المناظرة فقد تشعَّبتْ أيضًا عند المتأخرين مباحثُ علم البديع[2].

---

(١) قال الشوكاني هنا: «وقد تشعَّبتْ مسائلُ علم المناظرة في الأزمنة الأخيرة، فوصلَ رجلٌ من الأكراد مِنْ طلبة العلم ومعه رسالةٌ وشرحُها، يُذكر أنها لبعض علماء الهند ولم يُعرف اسمُه، وفيها من الفوائدِ وشروحِها والتفاصيلِ ما لا يُوجد في الآداب العضدية وشروحها إلا ما هو بالنسبة إليه كالرموز، وقد نقلها الناسُ عنه وانتشرتْ بين علماء صنعاء، وهي في نحو ثلاثة كراريس، مشتملة على مقدمة وتسعة مباحث، ولا يستغني طالب هذا الفنِّ عن إمعان النظر فيها، وقد اشتغلتُ بهذه الرسالة وقابلتُها معه على نسختهِ ولم يكن له من الفهم والاستعداد ما يبلغُ به إلى أنْ تؤخذَ عنه هذه الرسالة وشرحُها رواية ولا دراية، مع كونهِ كان مِن أهلِ الصلاحِ والإكبابِ على الطلبِ والرغبةِ في العلم».

(٢) قال الشوكاني هنا: «فإنَّ الموجود في كتب المتقدِّمين مِنْ أنواعه اللفظية والمعنوية دون أربعين نوعًا، وعند أهل البديعيات زيادةٌ على مئةٍ وخمسين نوعًا، وأخبرني الشيخُ عبدالرحمن بنُ أحمد الرئيس -من علماء الحرم المكي- عند وفوده إلى صنعاء أنه قد أنهاها بعضُ المتأخرين إلى نحو سبع مئة نوع، وأنه وقفَ على رسالةٍ أو منظومةٍ -الشك مني- لبعض المتأخرين تشتملُ على ذلك.
وأنا -بحمد الله- قد استخرجتُ أنواعًا من البديع، وذكرتُ لها أسماء خارجة عن الأسماء التي ذكرها أهلُ هذا العلم، وذكرتُ أبياتًا اشتملتْ على ذلك».

ثم ينبغي له أنْ يُكبَّ على مؤلَّفات اللغة المشتملة على بيان مفرداتها كـ «الصحاح»، و«القاموس»، و«شمس العلوم وضياء الحلوم»، و«ديوان الأدب»، ونحوِ ذلك من المؤلَّفاتِ المشتملةِ على بيان اللغة العربية عمومًا، أو خصوصًا كالمؤلَّفاتِ المختصةِ بغريبِ القرآنِ، والحديثِ.

ثم يشتغلُ بعد هذا بعلم المنطق، فيحفظُ مختصرًا من مختصراته كـ «التهذيب»، أو «الشمسية»، ثم يأخذُ في سماع شروحها على أهل الفنِّ، فإنَّ العلم بهذا الفنِّ على الوجه الذي ينبغي يستفيد به الطالبُ مزيدَ إدراكٍ، وكمالَ استعدادٍ عند ورود الحُجج العقلية عليه، وأقلُّ الأحوال أنْ يكونَ على بصيرةٍ عند وقوفه على المباحث التي يُوردُها المؤلِّفون في علوم الاجتهاد من المباحث المنطقية، كما يفعله كثيرٌ من المؤلِّفين في الأصول والبيان والنحو.

ثم يشتغلُ بفنِّ أصول الفقه بعد أنْ يحفظَ مختصرًا من مختصراته المشتملة على مهمات مسائله كـ «مختصر المنتهى»، أو «جمع الجوامع»، أو «الغاية».

ثم يشتغلُ بسماع شروح هذه المختصرات كـ «شرح» العضد على المختصر، و«شرح» المَحلّي على «جمع الجوامع»، و«شرح» ابن الإمام على الغاية.

وينبغي له أنْ يُطوِّلَ الباع في هذا الفنِّ، ويطلعَ على مؤلَّفات أهل المذاهب المختلفة كـ «التنقيح»، و«التوضيح»، و«التلويح»، و«المنار»، و«تحرير» ابن الهُمام، وليس في هذه المؤلَّفات مثلُ «التحرير» المذكور و«شرحِهِ».

ومِنْ أنفع ما يُستعان به على بلوغ درجة التحقيق في هذا الفنِّ الإكبابُ على الحواشي التي ألَّفها المحقِّقون على «الشرح العضدي»، وعلى شرح «الجمع».

ثم ينبغي له بعد إتقان فنِّ أصول الفقه -وإنْ لم يكن قد فرغ مِنْ سماع مطولاته- أنْ يشتغل بفنِّ الكلام، المُسمّى بأصول الدين، ويأخذ مِنْ مؤلَّفات الأشعرية بنصيبٍ، ومِنْ مؤلَّفات المعتزلة بنصيبٍ، ومِن المؤلَّفات الماتريدية بنصيبٍ، ومِنْ مؤلَّفات المتوسِّطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيبٍ، فإنه إذا فعل كلَّ هذا عرفَ الاعتقادات كما ينبغي، وأنصفَ كلَّ

فرقةٍ بالترجيح، أو التجريح على بصيرة، وقابل كلَّ قول بالقبول أو الرد على حقيقة.

ومِنْ أحسنِ مؤلَّفات المعتزلة: «المُجتبى»، ومِنْ أحسنِ مؤلَّفات متأخري الأشعرية: «المواقف» العضدية، و«شرحها» للشريف، و«المقاصد» السعدية و«شرحها» له[1].

ثم بعد إحراز هذه العلوم يشتغلُ بعلمِ التفسير، فيأخذ عن الشيوخ ما يحتاج مثلُهُ إلى الأخذ كـ «الكشاف»، ويكبُّ على كتب التفسير على اختلاف أنواعها وتباين مقاديرها، ويعتمد في تفسير كلام الله سبحانه ما ثبتَ عن رسول الله ﷺ، ثم عن الصحابة، فإنّهم مع كونهم أعلمَ مِنْ غيرهم بمقاصد الشارع هم أيضًا مِنْ أهل اللسان العربي، فما وجده من تفاسير رسول الله ﷺ في الكتب المعتبرة كالأمهات، وما يلتحق بها، قدَّمه على غيره، بل يتعين عليه الأخذُ به، ولا يحلُّ له مخالفته، وأجمعُ مؤلَّف في ذلك وأنفعُه وأكثرُه فائدةً «الدر المنثور» للسيوطي...

---

(١) وقال الشوكاني هنا: «وإياك أنْ يثنيك عن الاشتغال بهذا الفنِّ ما تسمعه من كلمات بعض أهل العلم في التنفير عنه، والتزهيد فيه، والتقليل لفائدته، فإنك إنْ عملتَ على ذلك، وقبلتَ ما يُقال في الفنِّ قبل معرفته، كنت مقلِّدًا فيما لا يُدرى ما هو، والكون في الطبقة الأولية، بل اعرفه حقَّ معرفته، وأنت بعد ذلك مفوضٌ فيما تقوله مِنْ مدح أو قدح، فإنه لا يُقال لك حينئذ: أنت تمدحُ ما لا تعرفه، أو تقدحُ فيما لا تدري ما هو، على أنه يتعلق بذلك فائدة، وزيادة بصيرة في علوم أخرى كعلم التفسير، وعلم تفسير الحديث، فإنك إذا بلغتَ إلى ذلك علمتَ ما في العلم بهذا الفنِّ من الفائدة، لا سيما عند قراءة «كشّاف» الزمخشري ومَنْ سلكَ مسلكه، فإنَّ في مباحثهم من التدقيقات الراجعة إلى علم الكلام ما لا يفهمُها حقَّ الفهم إلا مَنْ عرفَ الفنَّ، واطلعَ على مذاهب المعتزلة، والأشعرية، وسائر الفِرق.
وإني أقولُ بعد هذا: إنه لا ينبغي لعالم أنْ يدينَ بغير ما دان به السلفُ الصالحُ من الصحابة والتابعين وتابعيهم، من الوقوف على ما تقتضيه أدلةُ الكتاب والسُّنة، وإمرار الصفات كما جاءتْ، وردِّ علم المتشابه إلى الله سبحانه..».

وينبغي له أنْ يُطوِّلَ الباع في هذا العلم، ويطالعَ مطولات التفاسير كـ «مفاتيح الغيب» للرازي، فإنَّ المعاني المأخوذة من كتاب الله سبحانه كثيرة العدد، يَستخرج منها كلُّ عالم بحسب استعداده وقدر ملكته في العلوم.

ولا يغتر بما يزعمُه بعضُ أهل العلم مِنْ أنه يكفي الاطلاعُ على تفسير آيات الكتاب العزيز، كما وقع لكثيرٍ من التآليف في تفسير آيات مخصوصة مسميًا لها بآيات الأحكام كالموزعي، وصاحب «الثمرات»، فإنَّ القرآن جميعَه -حتى قصصه وأمثاله- لا يخلو مِنْ فوائد متعلقة بالأحكام الشرعية ولطائف لا يأتي الحصرُ عليها، لها مَدْخلٌ في الدين، يَعرفُ هذا مَنْ يعرفُه ويجهله مَنْ يجهلُه.

وينبغي أنْ يُقدِّم على قراءة التفاسير الاطلاعَ على علوم الأداء، وكل ما كان له مَدْخلٌ في التلاوة، وسائر العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، وما أنفعَ «الإتقان» للسيوطي في مثل هذه الأمور!

ثم لا يهمل النظرَ في الكتب المدونة في القراءات وما يتعلق بها كـ «الشاطبية»، وشرحها و«الطيبة»، وشروحها.

إذا عرفتَ ما ينبغي لَمَنْ أراد أن يكون من أهل الطبقة الأولى، فاعلمْ أنَّ أعظمَ العلوم فائدةً، وأكثرَها نفعًا، وأوسعَها قدرًا، وأجلَّها خطرًا، علمُ السُّنة المطهرة، فإنه الذي تكفَّل ببيان الكتاب العزيز، ثم استقلَّ بما لا ينحصرُ من الأحكام.

ولستُ أقولُ: إنَّ الطالب يشتغلُ به في وقتٍ معيّنٍ، ولا أقولُ: إنه يُقدِّمه على هذه العلوم المتقدِّمة أو يؤخره عنها، بل أقول: إنه ينبغي لطالب العلم بعد أنْ يقيم لسانه بما يحتاج إليه من النحو أنْ يقبلَ على سماع الكتب التي جمع فيها أهلُ العلم متونَ الأحاديث مقطوعة الأسانيد كـ «جامع الأصول»، و«المشارق»، و«كنز العُمّال»، و«المنتقى» لابن تيمية، و«بلوغ المرام» لابن حجر، و«العمدة».

ثم يسمع الكتب التي فيها الأسانيد، كالأمّهاتِ الستِّ، ومسندِ أحمد، وصحيحِ ابن خُزيمة، وابن حِبّان، وابن الجارود، وسُننِ الدارقطني، والبيهقي.

وبالجملة فما بلغتْ إليه قدرتُه ووَجدَ في أهل عصره شيوخَه مِن كتب السُّنة جدَّ في سماعهِ، واجتهد بحسب ما يمكنه.

ويكون هذا الاشتغالُ بهذا العلم الجليل مصاحِبًا لاشتغاله بجميع العلوم المتقدِّمة من البداية إلى النهاية.

فإذا قضى وطرَه مِنْ سماعِ كتبِ المتنِ والإسنادِ اشتغلَ بشروح هذه المؤلَّفات، فيسمع منها ما تيسر له سماعُه، ويطالع ما لم يتيسر له سماعُه.

ويستكثر من النظر في المؤلَّفات في علم الجرح والتعديل، بل يتوسع في هذا العلم بكل ممكنٍ، وأنفعُ ما ينتفع به مثل «النبلاء»، و«تاريخ الإسلام»، و«تذكرة الحفاظ»، و«الميزان»[1]، فإنه يجد في هذه المؤلَّفات من الاختلاف في المترجَم له وذكر أسباب الجرح والتعديل ما لا يجده في غيرها كـ«تهذيب الكمال» وفروعهِ.

وهذا بعد أنْ يشتغل بشيءٍ من علم اصطلاح أهل الحديث، كمؤلَّفات ابن الصلاح، و«الألفية» للعراقي، وشروحها، ولا يستغني عن المطولات بالمختصرات، لا سيما إذا بالغ مؤلِّفوها في الاختصار كـ«النخبة»، وما هو مشابهٌ لها.

وينبغي له أنْ يشتغل بمطالعة الكتب المصنَّفة في تاريخ الدُّول وحوادث العالَم في كل سنةٍ، كما فعله الطبريُّ في «تاريخه»، وابنُ الأثير في «كامله»، وكما فعله كثيرٌ من المؤرِّخين على اختلاف مسالكهم في تخصيصِ التصنيفِ بدولةٍ من الدول، أو طائفةٍ مِن طوائفِ أهل العلم والأدب، أو فرقةٍ من فرق أهل الرئاسات، أو غير ذلك، فإنَّ للاطلاع على ذلك فائدةً جليلةً لا يعرفُها إلا مَنْ عرفَ أحوالَ العالم، وأتقنَ أهلَ كل عصرٍ منهم، وعلمَ بأوقاتِ موالدِهم ووفياتِهم.

فإذا أحاط الطالبُ بما ذكرناه من العلوم فقد صار حينئذٍ في الطبقة العالية مِن طبقات المُجتهدين، وكملتْ له جميعُ أنواع علوم الدين، وصار قادرًا على استخراج الأحكام من الأدلة متى شاء وكيف شاء.

---

(١) أربعتها للذهبي.

ولكنه ينبغي له أنْ يطَّلعَ على علومٍ أخرى ليكمل له ما قد حازه مِن الشرف، ويتم له ما قد ظفر به مِن بلوغ الغاية.

فمِنْ ذلك علمُ الفقه، وأقلُّ الأحوال أنْ يعرفَ مختصرًا في فقه كل مذهب من المذاهب المشهورة، فإنَّ معرفة ما يَذهبُ إليه أهلُ المذاهب الإسلامية قد يحتاجه المجتهدُ؛ لإفادة المتمذهبين السائلين عن مذاهب أئمتهم[1].

وما أنفعَ الاطلاعَ على المؤلَّفات البسيطة في حكاية مذاهب السلف، وأهل المذاهب، وحكاية أدلتهم، وما دار بين المتناظرين منهم، إمّا تحقيقًا أو فرضًا، كمؤلَّفات ابنِ المُنذر، وابنِ قُدامة، وابنِ حزم، وابنِ تيمية، ومَنْ سلك مسالكهم، فإنَّ المجتهد يزداد بذلك علمًا إلى علمه، وبصيرةً إلى بصيرته، وقوةً في الاستدلال إلى قوته ...

ومما يزيدُ مَنْ أراد هذه الطبقةَ العليةَ علوًّا، ويفيدُه قوةَ إدراكٍ، وصحةَ فهم، وسيلانَ ذهنٍ، الاطلاعُ على أشعار فحول الشعراء، ومُجيديهم، والمَشهورين منهم باستخراج لطائف المعنى، ومُطربات النّكات، مع ما يحصلُ له بذلك من الاقتدار على النَّظم، والتصرُّف في فنونه، فقد يحتاج العالمُ إلى النظم لجواب ما يردُ عليه مِن الأسئلة المنظومة، أو المطارحات الواردة إليه مِن أهل العلم، ورُبما ينظمُ في فنٍّ من الفنون لغرضٍ من الأغراضِ الصحيحةِ، فإنَّ مَنْ كان بهذه المنزلة الرفيعة من العلم إذا كان لا يَقتدرُ على النظم كان ذلك خدشةً في وجهِ محاسنِه، ونقصًا في كمالِه.

---

(١) وأضاف الشوكاني هنا: «وقد يحتاجه لدفع مَنْ يشنِّع عليه في اجتهاده، كما يقع ذلك كثيرًا مِنْ أهل التعصُّب والتقصير، فإنه إذا قال له: قد قال بهذه المقالةِ العالمُ الفلانيُّ، أو عملَ عليها أهلُ المذهب الفلاني، كان ذلك دافعًا لصولته، كاسرًا لسورته، وقد وقعنا في كثير من هذه الأمور مع المقصِّرين، وتخلصنا عن شغبهم بحكاية ما أنكروه علينا عن بعض مَنْ يعتقدونه من الأموات».

وهكذا الاستكثارُ من النظر في بلاغات أهل الإنشاء المشهورين بالإجادة والإحسان، المتصرفين في رسالاتهم وحكاياتهم بأفصح لسان وأبين بيان، فإنه ينتفعُ بذلك إذا احتاج إلى الإنشاء، أو جاوب صديقًا، أو كاتب حبيبًا، لأنه ينبغي أن يكون كلامه على قدر علمه، وهو إذا لم يمارس جيد النظم والنثر كان كلامه ساقطًا عن درجة الاعتبار عند أهل البلاغة. والعلمُ شجرةٌ ثمرتُها الألفاظ، وما أقبحَ بالعالم المتبحِّر في كل فنٍّ أن يَتلاعبَ به في النظم والنثر مَن لا يجاريه في علمٍ من علومه، ويتضاحكَ منه مَنْ له أدنى إلمامٍ بمستحسن الكلام ورائق النظام.

ويستعين على بلوغ ما يليقُ به ويطابقُ رتبته بمثل علم العروض والقوافي، وأنفعُ ما في ذلك: «منظومة» الجزولي، وشروحها، وبمثل المؤلَّفات المدونة لذلك، وأنفعُ ما ينتفعُ به: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير.

ثم لا بأس على مَنْ رسخ قدمُه في العلوم الشرعية أنْ يأخذَ بطرفٍ من فنونٍ هي مِنْ أعظم ما يصقلُ الأفكارَ، ويصفي القرائح، ويزيد القلب سرورًا، والنفس انشراحًا، كالعلم الرياضي، والطبيعي، والهندسة، والهيئة، والطب.

وبالجُملة فالعلمُ بكل فنٍّ خيرٌ من الجهل به بكثيرٍ، ولا سيما مَنْ رشَّح نفسه للطبقة العلية، والمنزلة الرفيعة ...

وإذا عرفتَ ما ينبغي لأهل الطبقة الأولى من العلوم، فلنتكلمْ الآن على ما ينبغي لأهل **الطبقة الثانية** من الطبقات المذكورة سابقًا، وهي طبقةُ مَن يريدُ أنْ يعرفَ ما طلبَه منه الشارعُ من أحكام التكليف، والوضع، على وجهٍ يستقلُّ فيه بنفسه، ولا يحتاج إلى غيره، مِنْ دون أنْ يتصوّر البلوغ إلى ما تصوَّره أهلُ الطبقة الأولى من تعدي فوائدِ معارفِهم إلى غيرِهم، والقيام في مقام أكابر الأئمة المرجوع إليهم كما يتصوّره أهلُ الطبقة الأولى.

فنقول: صاحبُ هذه الطبقة الثانية هو مَنْ يطلبُ ما يصدقُ عليه مُسمّى الاجتهاد، ويسوغ به العملُ بأدلة الشرع، وهو يكفي بأنْ يأخذ من كل فنٍّ من

فنون الاجتهاد بنصيبٍ يعلمُ به ذلك الفنَّ علمًا يَستغني به عن الحاجة إليه، أو يهتدي به إلى المكان الذي فيه ذلك البحثُ على وجهٍ يفهمُ به ما يقفُ عليه منه.

فيشرعُ بتعلُّم علم النحو حتى تثبتَ له فيه ملكةٌ يقتدرُ بها على معرفة أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناءً، وأقلُّ ما يحصل له ذلك بحفظِ مختصرٍ من المختصرات المشتملة على مهمات مسائل النحو، والمتضمنة لتقرير مباحثه على الوجه المعتبر، كـ «الكافية» لابن الحاجب، وقراءة شرحٍ من شروحها المختصرة، وأحسنها بالنسبة إلى الشروح المختصرة «شرح» الجامي، فإنه ينتفع به الطالب انتفاعًا لا يجدُه في غيره من مختصرات الشروح.

ثم يحفظُ مختصرًا في الصرف كـ «الشافية» لابن الحاجب، وقراءة شرح من شروحها المختصرة، وأحسنُها «شرح» الجاربردي.

ثم يشتغلُ بحفظ مختصرٍ مِنْ مختصرات علم المعاني والبيان كـ «التلخيص» للقزويني، وقراءة شرح من شروحه المختصرة، كـ «شرح» السعد المختصر.

ثم يشتغلُ بحفظ مختصرٍ من مختصرات الأصول الفقهية، وقراءة شرح من شروحه، وأنفعُ ما ينتفعُ به الطالبُ «الغاية» للحسين بن القاسم، و«شرحها» له، فإنهما مع المبالغة في الاختصار قد اشتملا على ما حوته غالبُ المطولات الكبار.

ثم يشتغلُ بقراءة تفسيرٍ من التفاسير المختلفة كـ «تفسير» القاضي البيضاوي، مع مراجعة ما يمكنُه مراجعتُه من التفاسير.

ثم يشتغلُ بسماع ما لابُد مِنْ سماعه من كتب الحديث وهي الستُّ الأمهات، فإنْ عجزَ عن ذلك اشتغلَ بسماع ما هو مشتملٌ على ما فيها من المتون كـ «جامع الأصول»، ثم لا يدع البحث عن ما هو موجودٌ من أحاديث الأحكام في غيرها بحسب ما تبلغُ إليه طاقتُه، ويبحث عن الأحاديث الخارجة عن الصحيح في المواطن التي هي مظنةٌ للكلام عليها من الشروح والتخريجات.

ويكونُ مع هذا عند ممارسته لعلم اللغة على وجهٍ يهتدي به في البحث عن

الألفاظ العربية واستخراجها مِن مواطنها، وعنده مِن علمِ اصطلاحِ الحديثِ وعلمِ الجرحِ والتعديلِ ما يهتدي به إلى معرفة ما يتكلمُ به الحفاظُ على أسانيد الأحاديث ومتونها.

فمَنْ علمَ بهذه العلوم علمًا متوسطًا يُوجبُ ثبوتَ مطلقِ الملكةِ في كل واحدٍ منها صار مجتهدًا مستغنيًا عن غيره ممنوعًا من العمل بغير دليل.

وعليه أنْ يبحثَ عند كل حادثةٍ يحتاجُ إليها في دينهِ عن أقوالِ أهلِ العلمِ، وكيفيةِ استدلالهم في تلك الحادثة، وما قالوه وما ردَّ عليهم به، فإنه ينتفعُ بذلك انتفاعًا كاملًا، ويضمُّ إلى علمه علومًا، وإلى فهمه فهومًا.

وهو وإنْ قصُرَ عن أهل الطبقة الأولى فليس بمحتاجٍ فيما يتعلقُ به مِنْ أمر الدين إلى زيادةٍ على هذا المقدار.

ويختلفُ الانتفاعُ بالعلوم، باختلاف القرائح والفهوم، فقد ينتفعُ مَنْ هو كاملُ الذكاء صادقُ الفهم قويُّ الإدراك بالقليل، ما لا يقتدرُ على الانتفاع بما هو أكثر منه كثيرٌ مِنْ جامدي الفهم راكدي الفطنة.

وأمّا أهلُ **الطبقة الثالثة** وهم الذين يرغبون في إصلاح ألسنتِهم، وتقويمِ أفهامِهم، بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون إليه من الشرع، وعدمِ تحريفهِ وتصحيفهِ، وتغييرِ إعرابهِ، مِن دون قصدٍ منهم إلى الاستقلال، بل يعزمون على التعويل على السؤال، عند عروض التعارض والاحتياج إلى الترجيح:

فينبغي أنْ يعلمَ شيئًا من علم الإعراب حتى يعرفَ به إعراب أواخر الكلمة.

ويكفيه في مثل ذلك حفظُ منظومة الحريري المُسمّاة «الملحة»، وقراءةُ شروحها على أهل الفنِّ، وتدرُّبه في إعراب ما يطّلعُ عليه من الكلام المنظوم والمنثور، ويُحفي السؤال عن إعراب ما أشكلَ عليه، حتى تثبتَ له بمجموع ذلك ملكةٌ يَعرفُ بها أحوالَ أواخر الكلِم إعرابًا وبناءً، وإلا لم يعلمْ بوجوه العلل النحوية، ولا عرفَ الحُجج العربية.

ثم يتعلَّمُ اصطلاح علم الحديث، ويكفيه في مثل ذلك مثلُ «النخبة»، وشرحِها.

ثم بعد هذا يكبُّ على سماع المختصرات في الحديث مثل «بلوغ المرام»، و«العُمدة»، و«المنتقى»، وإنْ تمكَّن مِن سماع «جامع الأصول» أو شيءٍ مِن مختصراته فعَـلَ.

فإذا أشكلَ عليه معنى حديثٍ نظرَ في الشروحِ، أو كتبِ اللغة، وإنْ أشكل عليه الراجحةُ من المتعارضات، أو التبسَ عليه هلَ الحديثُ ممّا يجوز العملُ به أم لا، سألَ علماء هذا الشأن الموثوق بعرفانهم وإنصافهم، ويعملُ على ما يرشدونه إليه، استفتاءً وعملًا بالدليل، لا تقليدًا وعملًا بالرأي.

ويشتغلُ بسماع تفسيرٍ من التفاسير التي لا يُحتاج إلى تحقيق وتدقيق كـ «تفسير» البغوي، وتفسير السيوطي المُسمّى «الدر المنثور».

وإذا أشكلَ عليه بحثٌ من المبادئ، أو تعارضتْ عليه التفاسيرُ، ولا يهتدي إلى الراجح، أو التبسَ عليه أمرٌ يرجعُ إلى تصحيح شيءٍ ممّا يجدُه في كتب التفسير، رجعَ إلى أهل العلم لذلك الفنِّ، سائلًا له عن الرواية لا عن الرأي ...

وأمّا **الطبقة الرابعة** الذين يقصدون الوصولَ إلى علمٍ من العلوم، أو علمين أو أكثر، لغرضٍ من الأغراض الدينية أو الدنيوية، مِنْ دون تصوّرٍ إلى علم الشرع، كما يفعله مَنْ يريدُ أن يكون مدركًا لصناعةٍ من الصناعات التي لها تعلقٌ بالعلم، وذلك كمَنْ يريد أنْ يكونَ شاعرًا ومُنشئًا، أو حاسبًا، فإنه ينبغي له أنْ يتعلَّم ما يتوصلُ به إلى ذلك المطلب».

وقد تكلَّمَ (أي الشوكاني) على مَنْ يريدُ أنْ يكون شاعرًا ومُنشئًا، أو حاسبًا، أو عالمًا بالفلسفة، أو عالمًا بالطب، أو عالمًا بمذهبٍ من المذاهب، فليَرجعْ إلى ذلك مَن شاء.

وللسيوطي كلامٌ على شروط الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وفي الحديث

النبوي، وفي العربية، فلينظر فإنه مهمٌّ[1].

ولأبي بكر ابن العربي كذلك كلامٌ على ترتيب منهج الطلب في كتابه «قانون التأويل»، فليُنظر.

وينفعُ كثيرًا في هذا المجال تتبُّع التكوين العلمي للعلماء[2].

* * *

(١) انظر «التحدُّث بنعمة الله» للسيوطي (ص: ٢٢٤ - ٢٣١)، و«ترجمة العلامة السيوطي» للداودي (ص: ١٨٠ - ١٨٨)، و«بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين» لعبدالقادر الشاذلي (ص: ٦٥ - ٧٢). ثم انظر: «تقرير الاستناد في تيسير الاجتهاد» للسيوطي (ص: ٨٩ - ١٠٩).

(٢) واقرأ إنْ شئت مقال: «التكوين العلمي» لصاحب هذا البحث.

مصادر الفصل الأول

١. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للزَّبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥ (١٤٢٦ - ٢٠٠٥).

٢. إحياء علوم الدين، للغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٣. أدب الطلب ومنتهى الأدب، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبدالله يحيى السريحي، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤١٩ - ١٩٩٨).

٤. اغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد، لأحمد زرُّوق المالكي، تحقيق: نزار حمّادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، (١٤٤٠-٢٠١٩).

٥. الإفادات والإنشادات، لعبدالحي الكتاني، دراسة وتحقيق: عبدالهادي جمعون، وعبدالإله الصالح، دار الحديث الكتانية، طنجة، ط١ (١٤٣٧-٢٠١٦).

٦. البستان في إعراب مشكلات القرآن، لابن الأحنف اليمني، تحقيق: أحمد محمد عبدالرحمن الجندي، مركز الملك فيصل، الرياض، ط١ (١٤٣٩-٢٠١٨).

٧. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان. والنسخة الخطية في مكتبة رئيس الكتّاب في إسطنبول برقم (١١٦١).

٨. بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، لمحمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي، تحقيق: عبدالله رمضاني، الرابطة المحمدية

للعلماء، الرباط، ط١، (١٤٢٩-٢٠٠٨).

٩. بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، لعبدالقادر الشاذلي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دار اللباب، إسطنبول، ط١ (١٤٤٣ - ٢٠٢١).

١٠. تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، تحقيق: عمر بن غرامة العموري، دار الفكر، بيروت، (١٤١٥-١٩٩٥).

١١. ترجمة العلامة السيوطي، للداودي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دار اللباب، إسطنبول، ط١ (١٤٤٣-٢٠٢١).

١٢. التحدُّث بنعمة الله، للسيوطي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دار اللباب، إسطنبول، ط ١ (١٤٤٣ - ٢٠٢١).

١٣. تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، للسيوطي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ط١ (١٤٤٤-٢٠٢٣).

١٤. تقرير الاستناد في تيسير الاجتهاد، للسيوطي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ط١ (١٤٤٣ - ٢٠٢١).

٥١. حاشية ابن عابدين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢ (١٣٨٦-١٩٦٦).

١٦. الحاوي للفتاوي، للسيوطي، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، لبنان، (١٤١١-١٩٩٠).

١٧. الحِكم الملكية والكلم الأزهرية، لمرعي الكرمي، تحقيق: عبدالحكيم الأنيس، دار أروقة، عمّان، ط١ (١٤٣٤-٢٠١٣).

١٨. خريدة القصر، للعماد الأصفهاني، دار مداد، قسنطينة، الجزائر، (٢٠١٦).

١٩. الدُّر الثمين في أسماء المصنِّفين، لابن الساعي، حققه وعلق عليه: أحمد شوقي بنبين، ومحمد سعيد حنشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١

(١٤٣٠-٢٠٠٩).

٢٠. الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط٢ (١٣٩٢-١٩٧٢).

٢١. دُمية القصر وعُصرة أهل العصر للباخرزي، دار الجيل، بيروت، ط١ (١٤١٤).

٢٢. ديوان ابن الوردي، حققه وعلق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢ (١٤٢٩-٢٠٠٨).

٢٣. ديوان العربي المسّاري، جمع وتحقيق وتقديم: أحمد العراقي، مطبعة آنفو - برانت، فاس، ط١ (٢٠٠٣).

٢٤. الرسالة، للشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١ (١٣٥٧-١٩٣٨).

٢٥. روضة العقلاء، لابن حِبّان، دراسة وتحقيق: محمد عايش، دار أروقة، عمّان، ط١ (١٤٣٩-٢٠١٧).

٢٦. الزُّبد في الفقه الشافعي، لابن رسلان، دار المعرفة، بيروت.

٢٧. سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٨. صحيح مسلم، طبعة محمد فؤاد عبدالباقي، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩. صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، ط١ (١٣٨٩-١٩٦٩ فما بعد).

٣٠. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق: الطناحي والحلو، هجر للطباعة، ط٢ (١٤١٣).

٣١. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.

٣٢. فصول الحكماء، لأبي الهدى الصيادي، مطبعة هندية، القاهرة، (١٣٢٤-١٩٠٦).

٣٣. الفقيه والمتفقِّه، للخطيب البغدادي، حققه: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٢ (١٤٢١).

٣٤. فهرس الكتب المخطوطة في علم أصول الفقه المخطوطة في الخزانة الحسنية، لخالد زهري، وعبدالمجيد بوكاري، نشر الخزانة الحسنية، الرباط، ط١ (١٤٢٦-٢٠١٤).

٣٥. فيض القدير، للمُناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١ (١٣٥٦).

٣٦. الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ (١٤٠٨-١٩٨٨).

٣٧. مجموع مخطوط في الخزانة العامة في الرباط برقم (٣٢٢ ك).

٣٨. المَدْخل، لابن الحاج، دار التراث، مصر، (د.ت)، (د.م).

٣٩. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط١ (١٤١٢).

٤٠. المقدِّمات الممهّدات، لابن رشد، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٤٠٨-١٩٨٨).

٤١. مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، تحقيق: عبدالله التركي، دار هجر، ط٢ (١٤٠٩).

٤٢. مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، تصوير مكتبة دار التراث، القاهرة.

٤٣. منظومة المباحث الفقهية، لمحنض بابه الديماني، دار طيبة الدمشقية، ط ١ (١٤٤٤ - ٢٠٢٣).

٤٤. منهاج القاصدين ومفيد الصادقين، لابن الجوزي، تحقيق: كامل محمد الخراط، دار التوفيق، دمشق، ط ١ (١٤٣١ - ٢٠١٠).

٤٥. نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، لمحمد بن عبدالرحمن الوصابي، دار المنهاج، جدة، ط١ (١٤١٧-١٩٩٧).

٤٦. النوادر والزيادات على ما في المُدونة من غيرها من الأمهات، لابن أبي زيد القيرواني، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٩٩٩).

٤٧. الـوافي بالوفيات للصفدي، تحقيق: مجموعة من المحقِّقين العرب والمستشرقين، دار النشر فرانز شتاينر، شتوتغارت، ط ٣ (١٤١٢-١٩٩٢).

الفصل الثاني

أخلاق العلم

(ترشيد الواقع العلمي)

العلم روضةٌ غنّاء، تُبهج الناظرَ بأشجارِها الوارفةِ، ومياهِها الرائقةِ، وأنسامِها العطرةِ، ويجبُ على ذويها والمتمتعين بها الحفاظُ عليها، ولكن إذا أُهملتْ ولم تُعط حقَّها من العناية والتشذيب، والمتابعة والتهذيب، وهبَّتْ عليها رياحٌ عاتيةٌ، فأمالتْ غصونَها، وكدَّرتْ رونقَها، ولوّثتْ مياهها، ذهبَ ذلك الجمال، وغابتْ تلك النضارة.

أقصدُ مِنْ هذا أنَّ للعلم أخلاقًا يجبُ أنْ تظلَّ مرتبطة به أخذًا وعطاء، وتحمُّلًا وأداءً، وبحثًا ونقاشًا، وإذا أُهملت النفسُ التي تحمله كانت كتلك الروضة الغناء التي أصابتها الأعاصيرُ، ونال منها الإهمالُ.

* * *

١-ومِنْ أخلاق العلم التي يجب الحرص عليها: الإنصافُ والاعترافُ بفضل ذوي الفضل: وتأملوا هذه المواقف:

لمحمد بن خَلَف بن حيان، أبي بكر الضبيّ المعروف بوكيع (ت: ٣٠٦) كتبٌ منها كتاب «عدد آي القرآن والاختلاف فيه». وسُئل أبو بكر ابن مجاهد -رحمه الله- أنْ يُصنّفَ كتابًا في العدد فقال: قد كفانا ذاك وكيع[١].

وقال حمزة بن يوسف السهمي: سألتُ أبا الحسن الدارقطني أنْ يُصنِّفَ كتابًا في ضعفاء المحدِّثين فقال لي: أليس عندك كتابُ ابن عَدي؟ فقلت: بلى، قال: فيه كفايةٌ لا يُزاد عليه[٢].

وسُئل الشوكاني أن يشرح البخاري فقال: لا هجرة بعد «الفتح». يقصد «فتح الباري» لابن حجر.

وقال الصفدي في ترجمة قاضي القضاة شهاب الدين الخُوَيي: محمد بن أحمد (٦٢٦-٦٩٣):

«أخبرني تقي الدين عبدالرحمن ابن الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكاني رحمهما الله تعالى قال: قال لي والدي: لو لم يقدِّر اللهُ تعالى لقاضي القضاة شهاب الدين ابن الخُويي أنْ يجيء إلى دمشق قاضيًا ما طَلَعَ منا فاضلٌ»[٣].

* * *

(١) المحمدون من الشعراء (ص: ٣٠٠).
(٢) تاريخ جرجان (ص: ٢٦٧)، سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٥٥).
(٣) الوافي بالوفيات (٢/ ٩٨).

٢-ومِن ذلك إحسانُ القول في الآخرين:

وقد انتقد العلماءُ مَنْ يسيء القولَ في العلماء.

قال الصفدي في ترجمة ابن العريف: «كان العُبّاد والزُّهاد يألفونه، ويحمدون صحبته، قال ابنُ خلكان: حكى بعضُ المشايخ الفضلاء أنه رأى بخطِّه فصلًا في حقِّ أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري الأندلسي فقال فيه: كان لسانُ ابن حزم المذكور وسيفُ الحجّاج بنِ يوسف شقيقين. وإنما قال ذلك، لأنَّ ابنَ حزم كثيرُ الوقوع في الأئمة المتقدِّمين والمتأخرين، لم يكدْ يسلمُ منه أحدٌ»[١].

وجاء في ترجمة محمد بن الفرج أبي عبدالله المالكي الكتاني، المعروف بالذكي النحوي (ت: ٥١٦): «كان عالمًا بالنحو، واللغة، وسائر فنون الأدب، ورد إلى بغداد، وخرج إلى خراسان، ومضى إلى غزنة، ودخل الهند، وخاصم هناك أئمةً مخاصمات آلتْ إلى طعنهم فيه، ثم عاد إلى أصبهان ومات بها.

كان يقول: الغزالي ملحدٌ. وإذا ذكرَه يقول: الغزالي المجوسي البقرطوسي!!

ولم يَخرجْ من الغرب إلا وهو إمامٌ؛ لأنه قرأ على محمد بن يونس كتاب الجامع في مذهب مالك، وعلى عبدالخالق السيوري وغيرهما بالقيروان، وقرأ الأدبَ على الحيولي: «كتاب» سيبويه، و«الإيضاح» للفارسي، غير أنه كان يتبع عثرات الشيوخ، فدعا عليه السيوري فلم يفلح»[٢].

وكان العلماء يتجنَّبون مناقشته: قال السيوطي: «حضرَ مرةً إملاء محمد بن منصور السمعاني، فأملى المجلسَ، فأخذ عليه الذكيُّ شيئًا، وقال: ليس كما تقول؛ بل هو كذا، فقال السمعاني: اكتبوا كما قال، فهو أعرفُ به، فغيَّروا تلك الكلمة، وكتبوا كما قال الذكي، فبعد ساعةٍ قال: يا سيدي أنا سهوتُ والصوابُ

(١) الوافي بالوفيات (٨/ ٨٨).
(٢) الوافي بالوفيات (٤/ ٢٢٧).

ما أمليتَ، فقال: غيِّروه، واجعلوه كما كان، ففعلوا. فلما فرغَ من الإملاء وقام الذكيُّ، قال السمعاني: ظنَّ المغربيُّ أني أنازعُه في الكلام؛ حتى يبسط لسانَه فيَّ كما بسطه في غيري؛ فسكتُّ حتى عرفَ الحقَّ ورجعَ»[1].

وقال ابنُ خلكان في ترجمة شُمَيم الحِلي (ت: ٦٠١):

«كان جمَّ الفضيلة إلا أنه كان بذيء اللسان، كثيرَ الوقوع في الناس، مسلَّطًا على ثلب أعراضهم، لا يُثبِتُ لأحدٍ في الفضل شيئًا»[2].

وما أحسنَ هضمَ النفس أمام العلماء المتقدِّمين منهم والمتأخرين، وقد قيل في ترجمة الشاشي: «إليه انتهتْ رئاسة الشافعية ببغداد، ولمّا أَلقى الدرسَ وضعَ منديلَه على عينيه وبكى كثيرًا وهو جالسٌ على السُّدة، وأنشدَ:

خلت الديارُ فسدتُّ غير مسود ومن العناء تفردُّي بالسُّؤددِ»[3]

ولدينا من الصورِ المشرقةِ من الأدبِ واللطفِ وابتغاءِ العُذر للعلماء أمثلةٌ كثيرةٌ -بحمد الله-، ومِن أولئك الحافظُ ابن حجر، قال الحافظ السخاوي: «وأمّا كثرةُ أدبه مع العلماء المتقدِّمين منهم والمتأخرين، فمشهورٌ، بحيث كان إذا تعقَّبَ النووي -رحمه الله- بشيءٍ يقول: وعجبتُ للشيخ مع سعة علمه، كيف قال كذا! أو ما أشبهَ ذلك من العبارات»[4].

وقال الشيخُ محمد زكريا الكاندهلوي في إجازته لشيخنا الشيخ محمد عبدالرشيد النُّعماني: «وأوصيه بتقوى الله تعالى في العلن والنجوى، وأنْ يجتنبَ الإحداثَ في الدين، والتفريق بين المسلمين، وأنْ يحترز عن طلب لذات الدنيا

(١) بغية الوعاة (١/ ٢١٠).
(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٣٣٩).
(٣) الوافي بالوفيات (٢/ ٥٣).
(٤) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/ ١٠٤٣).

وحمأتها، وعن إساءة الأدب بأكابر الأمة وهُداتها»[1].

والإنسانُ لا يخلو مِنْ عيبٍ، فما يحسنُ الاشتغالُ بعيوب الآخرين: قال ابنُ حبان: «أنشدني الكريزي:

أرى كلَّ إنسان يرى عيبَ غيره ... ويعمى عَن العيب الذي هو فيهِ
وما خيرُ مَن تخفى عليْهِ عيوبُه ... ويبدو له العيبُ الذي لأخيهِ[2]

وقال آخر:

أعجبُ ممَّنْ عينُهُ لم تزلْ ... ترى عيوبَ الناس إذ تنقدُ
حتى إذا جاءَ إلى عيبهِ ... إنْ لم يكن أعمى فقلْ أرمدُ[3]

ومِنْ عجائب الأخبار ما حكاه الإمامُ ابن حجر الهيتمي:

قال في «ثبَته»: «ووقع لهذا [الفقيه جمال الدين الريمي ٧١٠-٧٩١] مع النووي غريبةٌ عجيبةٌ، سببُ حكايتي لها هنا ـ مع أنها ليس لها بما هنا تمامُ المناسبة ـ : أنَّ فيها تحذيرًا عظيمًا من معاداة العلماء، والتعرض لإذايتهم بوجهٍ من الوجوه، وسبق أنَّ إذايتهم ربما أدتْ إلى خاتمة السوء والعياذ بالله. وتلك القضية الغريبة هي: أنَّ النووي له كتابات متعددة على «التنبيه» للإمام أبي إسحاق الشيرازي، المشهور بأمير المؤمنين بالفقه، والذي سمّاه النبي ﷺ بـ (الشيخ)؛ لفرط ورعه وزهده.

وسببُ كثرة كتابة النووي على هذا الكتاب: أنه أول ما اشتغل بالعلم حفظَ

(١) الإجازات الهندية وتراجم علمائها، جمعَها واعتنى بها عمرُ بن محمد سراج حبيب الله (١/ ٤٦٦). ويريد الشيخُ: «إساءة الأدب بحق أكابر».
(٢) روضة العقلاء (ص: ٣٠٦)، ولطائف الأخبار للتنوخي (ص: ١١٢).
(٣) أزهار الحديقة (ص: ٩٠).

«التنبيه» في نحو أربعة أشهر، ثم لما تأهّلَ للتصنيف جعلَ التصنيفَ على هذا الكتاب مِنْ أوائل تصنيفه؛ لأنه محفوظه ....، فكتب عليه «شرحًا» لم يكمل، و«تصحيحًا» كمل، و«إشارات» و«لغات» وغير ذلك، وانتفع الناسُ بعدَهُ بتصانيفه المتعلقة بـ«التنبيه» انتفاعًا كثيرًا، ومع ذلك هي دون مصنَّفاته في آخر عمره؛ لأنَّ العالم كلما ازداد علمه ازداد تحقيقه وتدقيقه، واطلاعه على الخفيات، ومبالغته في دفع المشتبهات.

ولم يزل الناسُ على هذا الانتفاع بكتابات النووي رحمه الله على «التنبيه» إلى أن جاء الريمي هذا فشرح «التنبيه» شرحًا واسعًا جدًّا، أطال النّفسَ فيه، وجمعَ فأوعى، لكن أعجبته نفسُه فجرتْ إليه كل سوء. وذلك أنه لما أُعجب بنفسه أدَّاه ذلك إلى انتقاص النووي انتقاصًا كبيرًا، وبالغ في الحط عليه وتخطئته.

ولقد أريد أنْ يُقرأ عليَّ بعض مباحثه مع النووي، فسمعتُ منه في حق النووي من السَّفاهة والحماقة التي لا تتعلقُ بالمباحثة العلمية، وإنما تنبئ عن باطنٍ خبيثٍ رسخ فيه انتقاصُ النووي وعدمُ علمه، فأتى من الألفاظ الدالة على ذلك بما تمجُّهُ الأسماع، ولما سمعتُ ذلك قلتُ للقارئ: أمسكْ عن قراءة هذه المهملات، التي هي مجردُ سبٍّ للعلماء مِنْ غير موجبٍ له البتة، ولا حاملَ عليه إلا مجردُ سخافة العقل المؤدِّية إلى غاية الشقاوة.

ولّما حصلَ منه ذلك في «شرحه» وغيره، استمرَّ عليه إلى أنْ مات، فسُجِّي بثوبٍ إلى أن يُشترى له مؤن التجهيز، فبينما الناس محتاطون به، وقد كثر أسفُهم عليه؛ لأنه كان له في الفقه اليد الطولى، وإذا بِهِرٍّ كبيرٍ جدًّا يشق صفوف الناس إلى أن وصل إليه، وإذا فمه مفتوح، فأدخل رأسه في فمه وتناول لسانه، فاقتلعه من أصله، ثم عاد منقلبًا واللسان في فمه، فخرق تلك الصفوف، كما خرقها أولًا، والناس ينظرون إليه أولًا وثانيًا، فلم يستطع أحدٌ منهم زجره بكلمة، ولا التعرض ليأخذ باللسان، وإنما حصل لهم نحوُ رقودِ حواس، وشخوصِ البصر، وتعطيل القوى الباطنة والظاهرة، فأشاعوا هذه القضية، فعلم الفقهاءُ

الذين اطلعوا على «شرحه» أنَّ هذا مِن بركة النووي، وأنّ الله سبحانه انتقمَ له من هذا الرجل، واستمرَّ شيوعُ ذلك. قال الحافظ ابن حجر: «وقد نقل إلينا ذلك مِنْ غير ريبٍ ولا شكٍّ». أي: وكيف لا يقعُ مثلُ ذلك، ولحومُ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةُ الله فيهم معلومةٌ، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]»[(١)].

وقال ابنُ حجر في ترجمة محمد بن موسى بن محمد بن سند بن نعيم، الحافظ شمس الدين أبي العباس اللخمي المصري الأصل الشامي، المعروف بابن سند (ت: ٧٩٢): «وفي أواخر عمره تغيَّر ذهنُه، ونسيَ غالبَ محفوظاته حتى القرآن، ويُقال: إنَّ ذلك كان عقوبةً له لكثرة وقيعته في الناس. عفا اللهُ تعالى عنه بمنِّه وكرمِه»[(٢)].

وقد قال الإمامُ الطحاوي كلمةً جامعةً: «وعلماء السلف من السابقين، ومَن بعدهم من التابعين، أهلُ الخير[(٣)] والأثر، وأهلُ الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومَنْ ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»[(٤)]. وهذا مقياسٌ دقيقٌ.

* * *

(١) ثبت شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي (ص: ٤٨٥-٤٨٨).
(٢) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٦/ ٢٣).
(٣) في المطبوع: الخير.
(٤) متن الطحاوية (ص: ٨٢).

٣- ومن أخلاق العلم: عدمُ التعصُّبِ للنفسِ ورؤيةِ فضلها على الآخرين، وإلا انطبق علينا قولُ محمد بن الخمسي الإسكندري:

قـــال ليَ الـــعـــاذلُ في حـبِّـهِ وقـــولُـــهُ زورٌ وبهـــتـــانُ
مـا وجـــهُ مَـــنْ أحـببـتَـه قِـبـلـةٌ قـلـتُ: ولا قـولُـك قـــرآنُ[1]

إن بعض الناس تتضخم لديه الذات، ولا يرى غيرها في المرآة، فالحسنُ ما صدر عنه، والكمالُ ما فعله، والصوابُ ما قاله، والرأيُ ما ارتآه، وما جاء مِن غيره فالأصلُ فيه الخطأ، والموقفُ منه الردُّ والتشكيكُ والانتقاصُ.

والعدلُ أن يكون الباحث متجرّدًا، يرى للآخرين ما يراه لنفسه، ويعلم يقينًا أن مواهب الله تعالى غير محصورة في شخصٍ دون شخصٍ، ولا في زمان دون زمان، وأن الأمة تتآزر وتتناصر، وتتآلف وتتكاتف، وتتقارب وتتحابب، وأن الجميع يشاركون في خدمة العلم والدين، ولكل مجتهدٍ نصيب، ولكل عامل جهدُه واجتهادُه، والعاقل من أدّاه عقله إلى الاعتراف بفضائل الآخرين، والكامل مَنْ أورثه كمالُه النظرَ المنصفَ إلى العلماء: السابقين واللاحقين والعصريين.

* * *

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ٤٢-٤٣).

٤-ومن أخلاق العلم: حفظُ اللسان، واحترامُ الأقران:

وقد اشتكى مشتكٍ مِن أحوال الناس، فقال بيتين عجيبين، ذلك هو أبو نصر الأواني، محمد بن أحمد بن الحسين الكاتب الأديب النبيل النبيه الحاذق (ت: ٥٥٧)، قال:

يـا ربِّ عـفـوكَ إنـنـي في معشرٍ ... لا أبـتـغـي مـنـهـم ســواك مَــلاذا

هــذا يـنـافـقُ ذا، وذا يـغـتـابُ ذا ... ويـسـبُّ هــذا ذا، ويشتمُ ذا ذا[١]

وقال الصفدي: «قال الشيخ شمس الدين الذهبي: لو سمعنا كلامَ الأقران بعضِهم في بعضٍ لاتسعَ الخرقُ.

قلتُ [القائل الصفدي]: هذا هو الإنصافُ، فقد سمعتُ أنا وغيرُ واحد غيرَ مرة من الشيخ أثير الدين أبي حيّان الطعنَ البالغَ والإزراءَ التامَّ على الشيخ تقيِّ الدين ابن دقيق العيد، وهو شيءٌ خلافُ الإجماع؛ لصورةٍ كانتْ بينهما»[٢].

وقال الكوثري: «المنافساتُ بين الأقران لها شؤون، في جميع القرون، لا سيما إذا كان بينهم تزاحمٌ في المناصب، أو تخالفٌ في المذاهب»[٣].

ومِنْ عجائب الحِلم ما جاء في ترجمة النصير الطوسي، فقد ذُكر أنَّ شخصًا كتبَ له:

يا كلب يا ابن الكلب. فكان الجواب: وأمّا قولُه كذا، فليس بصحيح؛ لأنَّ الكلبَ مِن ذوات الأربع، وهو نابحٌ، طويلُ الأظفار، وأنا فمنتصبُ القامة، بادي البشرة، عريضُ الأظفار، ناطقٌ، ضاحكٌ، فهذه الفصولُ والخواصُّ غيرُ تلك الفصول والخواص. وأطالَ في نقض كل ما قاله هكذا برطوبةٍ وتأنٍّ غير منزعج، ولم يقل في الجواب كلمةً قبيحةً[٤].

---

(١) المحمدون من الشعراء (ص: ٥٩).
(٢) الوافي بالوفيات (٢/ ١٣٤).
(٣) من تعليقه على «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد (ص: ١٤٠).
(٤) الوافي بالوفيات (١/ ١٤٩). وثَم قصة للفخر الرازي في ذلك.

٥-ومن أخلاق العلم: ألا يترك الإنسانُ إلا أثرًا طيبًا:

جاء في ترجمة محمد بن محمد الشيباني النصيبي، ثم القوصي، الأديب الشاعر الفاضل المحدث (ت: ٧٠٧): قال كمال الدين جعفر الأدفوي: شعرُه في ثلاث مجلدات، وكان رزقُه منه يمتدحُ القضاةَ والأمراءَ والأكابرَ والتجارَ.

قال: لما جئتُ إلى قوص وجدتُّ بها الشيخ تقي الدين [ابن دقيق العيد] والشيخ جلال الدين الدشنائي، فترددتُّ إليهما، فقال لي كلٌّ منهما كلامًا انتفعتُ به، فأمّا الشيخ تقي الدين فقال لي: أنت رجل فاضل، والسعيد مَنْ تموت سيئاتُه بموته، لا تهجُ أحدًا. فما هجوتُ أحدًا. وأمّا الشيخ جلال الدين فقال لي: أنت رجلٌ فاضلٌ ومِنْ أهل الحديث، ومع ذلك فأشاهدُ عليك شيئًا ما هو ببعيدٍ أن يكون في عقيدتك شيء... فتبتُ من ذلك»[(١)].

وكان المؤلِّفون من العلماء يحذرون الهجومَ عليهم، وانتقادَهم، ولومَهم، فكانوا يختمون بالاعتذار عمّا يوجد في تآليفهم مِنْ خللٍ أو زللٍ، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن الممكن كتابةُ مقال مطول في هذا تحت عنوان: اعتذارات العلماء، وتحت يدي الآن مِن هؤلاء ما كتبه الشيخُ عبدالحق بن عبدالحنان الجاوي، يقول في كتابه «تدريج الأداني إلى قراءة شرح السعد على تصريف الزنجاني»: «والمرجو ممَّن اطلعَ عليه ورأى عيبًا، أو خللًا، أنْ يلتمس لي العذر؛ فإنَّ هذا الزمان غيرُ قابل للفهم، فضلًا عن الجمع والترتيب؛ لصعوبتِهِ وكثرةِ أكداره، وعظيمِ أضراره، ونسأله الحماية ممّا يتجدد، وكشف ما فيه مما لا يُحمد»[(٢)].

وقد أكثرَ العلماءُ من الشكوى مِن أذى الناس، ومِنْ ذلك قول عبدالرحمن بن محمد بن المظفر الداودي، راوي صحيح البخاري (ت: ٤٦٧):

---

(١) الوافي بالوفيات (١/ ٢٠١).
(٢) تدريج الأداني (ص: ٢١٩).

كـان في الاجـتـماعِ لـلـنـاسِ نـورٌ فـمـضى الـنـورُ وادلهـمَّ الـظـلامُ
فـسـدَ الـنـاسُ والـزمـانُ جميعًا فعلى الـنـاسِ والـزمـانِ الـسـلامُ[1]

وقد أَلَّفَ الوزيرُ الأديبُ الشاعرُ المؤرخُ علي بن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي، أبو الحسن جمال الدين (ت: ٦١٣): « شفاء الغليل في ذمِّ الصاحب والخليل»، واختصرَه السيوطي وسمّاه: «الشهاب الثاقب في ذمِّ الخليل والصاحب»[2].

وقال شاعر:

صُـمٌّ إذا سمعوا خـيرًا ذُكـرتُ به وإنْ ذُكـرتُ بسوءٍ عندهم أذِنـوا

وقال قعنب:

إنْ يـأذنـوا ريـبةً طـاروا بهـا فرحًا وما همُ أذنـوا مِنْ صالحٍ دفنوا[3]

* * *

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٦/ ١٦٩).
(٢) الأعلام (٤/ ٢٩٧).
(٣) البحر المحيط (٨/ ٤٤٥).

٦-ومن أخلاق العلم: رعايةُ حقِّ المخالف بعد موته:

لمّا مات الإمامُ الفقيهُ الأديبُ محمد بن داود الظاهري الأصفهاني البغدادي (ت: ٢٩٧) جلس ابنُ سُريج في عزائه، وبكى وجلس على التراب، وقال: ما آسى إلا على لسانٍ أكله الترابُ من أبي بكر.

ويُحكى أنه لمّا بلغته وفاتُه كان يكتبُ شيئًا، فألقى الكراسةَ مِن يده، وقال: مات مَنْ كنتُ أحثُّ نفسي وأجهدُها على الاشتغال لمناظرتِهِ ومقاومتِهِ[١].

وكان بين ابن الجوزي وعصريه عبدالمُغيث الحربي خلافٌ في بعض المسائل العلمية وردودٌ، ومع ذلك فقد جاء عن ابن الجوزي ما يليق به وبالعلماء، قال ابنُ رجب الحنبلي: «قال ابنُ الصيرفي: ولقد حكى لي شيخُنا محبُّ الدين أبو البقاء: أن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي كان يقول: إني لأرجو من الله سبحانه أنْ أجتمع أنا وعبدالمغيث في الجنة. قال: وهذا يدلُّ على أنه يعلم أن الشيخ عبدالمغيث من عباد الله الصالحين، فرحمة الله عليهما»[٢].

وحزنَ القنوجي على عبدالحي اللكنوي حزنًا شديدًا، على ما كان بينهما من الردود.

قال الشيخ عبدالحي الحسني: «جرتْ بين الشيخ عبدالحي وبين السيد صدّيق حسن الحسيني القنوجي فيما ضبط السيدُ في «إتحاف النبلاء» وغيرِهِ من وفيات الأعلام نقلًا عن «كشف الظنون» وغيره [ردودٌ]، وانجرتْ إلى ما تأباه الفطرةُ السليمةُ، ومع ذلك لما تُوفي الشيخُ عبدالحي تأسَّف بموته[٣] تأسُّفًا شديدًا، وما أكلَ الطعامَ في تلك الليلة، وصلّى عليه صلاة الغَيبة، نظرًا إلى سعة

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ٤٩).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٥١).
(٣) يريد الشيخُ: على موته. أو: بسبب موته.

اطلاعه في العلوم والمسائل»[1].

إنَّ هذا كلَّه يقودُنا إلى القول بأنَّ التراث الإسلامي أظهرَ حالةً من التكامل رائعةً معجبةً، فما بين العلماء تكاملٌ لا تقاتلٌ.

ومِنْ شرِّ ما يُبتلى به العالم: الحسدُ، وقد يدفعُه ذلك إلى ارتكاب الكبائر، ومِن أغربِ ما قرأتُ في سبب موت عبدالعزيز بن عبدالرحمن ابن الجوزي ما نقله العلماءُ في ترجمته، قال ابنُ رجب: «وسافرَ إلى الموصل، ووعظَ، وحصلَ له القبولُ التامُّ، فيُقال: إن بني الشهرزوري حسدوه، فدسُّوا إليه مَنْ سقاه السم، فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده»[2]. وعسى ألا يكون لما قيل أصلٌ.

* * *

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام (٨/ ١٢٦٩).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٥١٢).

٧- ومن أخلاق العلم: النظر إلى الآخرين بعين المحبة والشفقة والرحمة:

قيل لأبي عبدالله السجزي: ما الفتوةُ؟ قال: رؤيةُ أعذارِ الخلقِ وتقصيرِك، وتمامِهم ونقصانِك، والشفقةُ على الخلق كلهم: برِّهم وفاجرِهم، وكمالُ الفتوة هو أن لا يشغلك الخلقُ عن الله[١].

ومِن أغرب الأقوال قولُ أبي عبدالرحمن البابي: لي خمسون سنة أجالسُ الناس، فما رأيتُ إلا مَن هو متبعٌ هواه، حتى إنه ليخطئ فيحبُّ أن الناس قد أخطؤوا، ولأنْ أسمعَ في جلدي صوتَ ضربٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ يُقال: أخطأ فلان[٢]. وقولُه الأخيرُ دالٌ على طهارة نفسه وسموِّها، رحمه الله.

وعن محمد بن كعب القُرَظي، -وذكر قولَ الناس فيمَن يطلبُ الدنيا ويعجبُ-، فقال: «إنما يَغيظني أنه يُذْكر [طالب الدنيا] عندَ أهل الصلاح، فيمدحونه، ويكرمونه. ويُذكر عندَهم مَنْ إنما هو صاحبُ آخرةٍ يطلبُها، ويعملُ لها، فلا يُذكرُ ذلك منه، فلو كان غيرُ أهل الخير الذين يقولون هذا». ثم أنشأ يحدِّث فقال: حُدِّثتُ عن مالك بن أنس بن حدثان[٣] أنه سمع أبا ذر يحدِّث، أنه كان عند النبي ﷺ، فطلع رجلٌ من أشراف الناس، فقال له النبيُّ ﷺ: يا أبا ذر، كيف رأيُك في هذا؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: صدقتَ، وليس عن هذا سألتُك، فقلتُ: من أشراف الناس، فطلع آخرُ من أهل الصُّفة مِنْ مساكين الناس، فقال النبي ﷺ: أي أبا ذر، كيف رأيُك في هذا؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: صدقتَ، وليس عن هذا سألتُك. فذَكَرَ أنه ممَّن لا يُدعى، ولا يُفتقد منه مشهدٌ، ولا مغيبٌ، نحو ذا، فلمّا قاما قال النبي ﷺ: هذا خيرٌ مِنْ طلاع الأرض مِنْ مثل هذا[٤].

* * *

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥١)، وإرغام أولياء الشيطان (ص: ١٥٢).
(٢) إرغام أولياء الشيطان (ص: ١٦٤).
(٣) في الأصل هنا: «- قال محمد: وكان حفظَ عن أبي ذر -».
(٤) الزهد للمعافى بن عمران الموصلي (ص: ٢١٩-٢٢٠).

٨- ومن أخلاق العلم: عدمُ اعتدادِ الباحثِ الزائدِ ببحوثِهِ وتآليفِهِ وأعمالِهِ العلميةِ، والنظرِ إلى أعمال الآخرين بعين النقص والازدراء مِنْ غير إنصاف:

قال الشيخُ يوسف النبهاني في كتابه «أسباب التأليف من العاجز الضعيف»: «وأقسمُ بالله العظيم أني لو كنتُ -أو بعضُ المؤلِّفين الآن- في الزمن الأول لأدّبونا على دعوى العلم، فضلًا عن التأليف. نعم، هذا الزمانُ أبو العجائب»[(١)].

وقال الشيخُ العارفُ أبو بكر محمد بن حامد الترمذي (من أهل القرن الثالث): ما استصغرتُ أحدًا من المسلمين إلا وجدتُّ نقصًا في إيماني ومعرفتي[(٢)].

وقال الشيخُ محفوظ بن محمود النيسابوري (ت: ٣٠٣): لا تزن الخلقَ بميزانك، وزنْ نفسَك بميزان المؤمنين؛ لتعلم فضلَهم وإفلاسَك.

وقال: أكثر الناس خيرًا أسلُمهم صدرًا للمسلمين[(٣)].

وقال الأستاذ عبدالمنعم خلّاف: ما أجملَ مذهب القائل - وأظنُّه شاعرًا سوريًّا أو لبنانيًا معاصرًا:

أيها الناقصُ أعمالَ الورى ... هل أريتَ الناسَ ماذا تعملُ؟
لا تقلْ عن عملٍ: ذا ناقصٌ ... جِئْ بأوفى ثم قلْ: ذا أكملُ
إنْ يغبْ عن عينِ سارٍ قمرٌ ... فحرامٌ أن يُعابَ المشعلُ[(٤)]

وقال الشعراني: «لما افترى بعضُ الناسِ الحسدةِ في جامع الأزهر أنني ادعيتُ مقام الاجتهاد المطلق، وثارتْ فتنة عظيمة، قال الشيخُ ناصر الدين

(١) (ص: ٣٣١-٣٣٢) (آخر كتابه «جامع الكرامات»).
(٢) طبقات الصوفية للسلمي (ص: ٢٨٣).
(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥١).
(٤) مجلة الرسالة (٢٧٠/ ٣١ بترقيم الشاملة)، والمجموعة النفيسة (ص: ٦٧).

الطبلاوي: إنْ ثبتَ ذلك عن عبدالوهاب، فأنا أول مَنْ يقلِّده، ويعمل بمذهبه. وهذا تواضعٌ عظيمٌ ما سمعتُه مِنْ أحدٍ من أهل عصري...»[١]

وينفع في هذا كثيرًا استحضارُ قول الشيخ علي الخواص: كل علمٍ استفاده صاحبُه مِن كلام غيره فليس بعلمه هو...[٢].

والعلمُ واسعٌ، ومَنْ يحيط بالبحر؟

قال أرسطاطاليس: ما طلبي العلم لبلوغِ قاصيته، والاستيلاءِ على غايته، لكن ما لا يَسَعُ العاقلَ جهلُه[٣].

وقال بعضُ العلماء: ليس معي من العلم إلا أني أعلمُ أني لستُ أعلم[٤].

وقال محمود الورّاق:

أتمُّ الناس أعرفُهم بنقصِهْ وأقمعُهم لشهوته وحرصِهْ[٥]

وقال خالد بن يزيد بن معاوية: عُنيتُ بجمع الكتب، فما أنا من العلماء، ولا من الجُهال[٦].

(١) الطبقات الصغرى (ص: ١٠٧).
(٢) الطبقات الصغرى (ص: ٧٨).
(٣) أورده الراغبُ الأصفهاني في رسالته: «فضيلة الإنسان بالعلوم» المنشورة في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، العدد (٢٢)، (ص: ٢٩٠). وانظر لزامًا (ص: ٢٩٣).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٠).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٠).
(٦) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٣).

وقال الشعبي: ما رأيتُ مثلي، ما أشاءُ أن أرى أعلمَ مني إلا وجدتُّه[1].[2].

قال أبو الدرداء: مَنْ يزددْ علمًا يزددْ وجعًا[3]

وقال سفيان الثوري رحمه الله: لو لم أعلمْ كان أقلَّ لحزني[4].

* * *

(١) في الأصل: وحدثته. وقال المحقق: «في المطبوع: وجدته، وهو تصحيف ظاهر». قلت: وجدتُّه، هو الصواب.
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٤).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤٤). وهو في «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٣٥٨).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤٤).

٩- ومن أخلاق العلم: أن يكون التأليفُ ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، والشكرِ لله على ما أعانَ وألهمَ، وإرادة انتفاع الأمّة بذلك، لا للتباهي والترفعِ والترزُّقِ ومسابقةِ الآخرين:

قال الحافظ ابنُ حجر في ترجمة الإمام البخاري: «قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعتُ الفربري يقول: سمعتُ محمد بن إسماعيل البخاري يقول: ما وضعتُ في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلتُ قبل ذلك وصليتُ ركعتين.

وعن البخاري قال: صنَّفتُ «الجامع» مِن ست مئة ألف حديث، في ست عشرة سنة، وجعلتُهُ حجة فيما بيني وبين الله.

وقال أبو سعيد الإدريسي: أخبرنا سليمان بن داود الهروي: سمعتُ عبدالله ابن محمد بن هاشم يقول: قال عمر بن محمد بن بُجَير البُجَيري: سمعتُ محمد ابن إسماعيل يقول: صنَّفتُ كتابي «الجامع» في المسجد الحرام، وما أدخلتُ فيه حديثًا حتى استخرت الله تعالى وصليتُ ركعتين وتيقنتُ صحته»[(١)].

وكان إسماعيل بن يحيى المُزَني المصري، صاحب الشافعي (ت: ٢٦٤) «إذا فرغ من مسألةٍ وأودَعها «مختصره» قام إلى المحراب وصلى ركعتين شكرًا لله تعالى. وقال أبو العباس أحمد بن سُريج: يَخرج مختصرُ المُزني من الدنيا عذراء لم تُفض، وهو أصلُ الكتب المصنَّفة في مذهب الشافعي رضي الله عنه، وعلى مثاله رتّبوا، ولكلامه فسَّروا وشرحوا»[(٢)].

وقال ابنُ خلكان في ترجمة الإمام أبي القاسم الزجّاجي (ت: ٣٣٧): «كتابه «الجُمل» من الكتب المباركة، لم يشتغلْ به أحدٌ إلا وانتفع به، ويُقالُ: إنه صنَّفه بمكة، حرسها الله تعالى، وكان إذا فرغ مِن بابٍ طاف أسبوعًا[(٣)]، ودعا الله تعالى

(١) هُدى الساري (ص: ٤٨٩).
(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢١٧).
(٣) أي سبعة أشواط.

أنْ يغفر له، وأنْ ينفع به قارئه»[١].

وقيل: إنه ما بيَّضَ مسألة في «الجُمل» إلا وهو على وضوءٍ، فلذلك بُورك فيه[٢].

وقال أبو الوفاء ابنُ عقيل الحنبلي البغدادي: «شاهدتُ شيخَنا أبا إسحاق [الشيرازي، المتوفى سنة ٤٧٦] لا يُخرج شيئًا إلى فقيرٍ إلا أحضر النية. ولا يتكلمُ في المسألة إلا قدَّمَ الاستعانة بالله، وإخلاص القصد في نصرة الحق، دون التحسّن للخلق، ولا صنَّفَ مسألةً إلا بعد أن صلى ركعات، فلا جرمَ شاع اسمُه، وانتشرتْ تصانيفُه شرقًا وغربًا، هذه بركاتُ الإخلاص»[٣].

وقال السيوطي في ترجمة محمد بن محمد بن داود الصنهاجي: أبي عبدالله النحوي المشهور بابن آجروم (ت: ٧٢٣)[٤]:

«صاحب المقدمة المشهورة بالجرومية، وصفه شُرّاحُ مقدمته، كالمكودي والراعي وغيرهما بالإمامة في النحو، والبركة والصلاح، ويشهدُ بصلاحه عمومُ نفع المبتدئين بمقدمته...

وذكرَ الراعي أنه ألّفَ مقدمته تُجاه الكعبة الشريفة»[٥].

إنَّ للصلة بالله تعالى في التأليف أثرًا عظيمًا، وهذه الصلة تجعل الإنسانَ يطلب الصواب لله، ويبذل الجهدَ لنفع الأمة لله، ثم لا يجد حرجًا من الرجوع عن الخطأ، إذا أخطأ، سواء اكتشف ذلك بنفسه، أو دلَّه عليه دالٌّ.

* * *

(١) وفيات الأعيان (٣/ ١٣٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٧٥).
(٣) صفة الصفوة (٤ / ٦٧).
(٤) بفتح الهمزة الممدودة، وضم الجيم والراء المشددة، ومعناه بلغة البربر «الفقير الصوفي»، كما في ترجمته هذه.
(٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة (١/ ٢٣٨).

١٠-ومن أخلاق العلم: الاعتذار للعلماء والمؤلفين، ومن ذلك: الإحالة على سقم النسخ:

قال الأزهري في مقدمة «تهذيب اللغة»[١] -وذَكَرَ عالمًا أخطأ-: «ولعل النُّسخ التي نَقلَ عنها ما نَسخَ كانت سقيمة».

وقال ابنُ الأثير في «أسد الغابة»[٢] معلِّقًا على شيءٍ قاله ابنُ منده: «والذي أظنُّه رأى في نسخةٍ سقيمةٍ: من بني مالك بن النجار: أوس بن ثابت. فأضاف الناسخُ بعد النجار: ابن. وظنّه النجار بن أوس. وليس كذلك»[٣].

وقال الصالحي في «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد»[٤] في كلامٍ له:

«وقوله [أي الشيخ عبدالباسط البلقيني]: حزمان -بزاي معجمة- أراد محمدَ بن حزمان، كما ذكرَه في الشرح، وكأنه تبع نسخةً سقيمةً من «حاشية الشفا» للحلبي؛ فإنه نقل ذلك عنها عن «الإشارة» لمغلطاي. والذي رأيتُه في عدة نسخ مِن «الإشارة»: محمد بن حرماز -بحاء مهملة فراء وآخره زاي-. وكذا رأيتُه بخط مغلطاي في «الزهر»، والحافظِ ابن حجر، والعلاّمةِ العيني في «شرحيهما» على البخاري».

وقال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن»[٥] في سياق كلامٍ:

«... قال ابنُ السمعاني: لم يذهب إلى القول الأول إلا شرذمةٌ قليلةٌ، واختارَه العتبي قال: وقد كان يعتقد مذهب أهل السُّنة لكنه سها في هذه المسألة، قال: ولا غروَ فإنَّ لكل جوادٍ كبوة، ولكل عالمٍ هفوة».

---

(١) (١/ ٣٠).
(٢) (١/ ٢٧٧).
(٣) وانظر (١/ ٨٤٤) و(١/ ٨٥٤).
(٤) (١/ ٤١١).
(٥) (٣/ ٦).

١١- ومن أخلاق العلم: معرفةُ ما لدى الآخرين مِنْ حُججٍ وأدلةٍ ووجهاتِ نظر:

قال الأستاذ عبدالفتاح الحلو في كلامه على جابر بن حيان: «وهو يرى أنَّ أخلاقَ العالم تقتضي منه أنْ يُنصفَ خصمه، وأنْ يعرفَ حُجَجه حجةً حجةً، لا يترك منها شيئًا، ولا يضيف إليها شيئًا»[١].

وقال الشيخُ محمد بن أحمد المتولي الشافعي الخلوتي في «الروض النضير في أوجه الكتاب المنير»[٢]:

«ويرحم اللهُ ابنَ الوردي حيث قال:

فالناسُ لم يُصنِّفوا في العلمِ ... لكي يصيروا هدفًا للذمِّ
ما صنَّفوا إلا رجاء الأجرِ ... والدعواتِ وجميلِ الذكرِ
لكنْ فديتُ جسدًا بلا حسدْ ... وما يُضيعُ اللهُ أجرًا لأحدْ
واللهُ عند قول كلِّ قائلْ ... وذو الحجا مِنْ نفسهِ في شاغلْ[٣]».

* * *

(١) أعلام التراث الإسلامي (ص: ١٧).
(٢) وهو مخطوطٌ في مكتبة مكة في مكة.
(٣) والأبيات في «إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين» (٤/ ٣٩٢)، والبيت الرابع منه.

١٢- ومن أخلاق العلم: عدمُ المنازعة في العمل العلمي مِنْ تأليف أو تحقيق، ولا سيما الثاني:

لا تنازِعْ عالمًا محققًا سبقكَ إلى عمل.

قيل لأبي السعود المفتي: لِمَ لمْ تجمع المسائل المهمة، ولم تؤلِّفْ فيها كتابًا؟

قال: «أنا أستحي منْ صاحبِ «البزازية» مع وجود كتابه؛ لأنه مجموعةٌ شريفةٌ جامعةٌ للمهمات على ما ينبغي»[١].

وقال المازني (ت: ٢٤٨): «مَنْ أرادَ أنْ يُصنِّفَ كتابًا كبيرًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي[٢]»[٣].

وذكرَ السيوطي في كتابه «التحدُّث بنعمة الله»[٤] كتابًا شرع فيه فقال: «شرح البهجة: ممزوج، كُتب منه أوراقٌ، وكان الشروع فيه في سنة سبع وستين [وثماني مئة]، فلما سمعتُ أنَّ الشيخ زكريا [الأنصاري] شرعَ في مثل ذلك فترَ العزمُ عنه».

وذكر ابنُ طولون الحنفي لنفسه: «شرح على منظومة الشمس ابن الجزري في أنواع علم الحديث المسماة بالهداية»، وقال: «كتبتُ منه أوراقًا، ثم أعرضتُ عنه لما وقفتُ على شرحٍ عليها للشمس السخاوي»[٥].

وذكر كذلك «الفضة المَصوغة في الأحاديث الموضوعة» وقال: «كتبتُ منه قطعة، ثم رأيتُ لشيخنا الجلال السيوطي «اللآلئ المصنوعة» في ذلك، فأعرضتُ عمّا كتبتُه»[٦].

---

(١) كشف الظنون (١/ ٢٤٢).
(٢) هذا من: استحيا يستحيي.
(٣) كشف الظنون (٢/ ١٤٢٨).
(٤) (ص: ١٦٠).
(٥) الفلك المشحون (ص: ١١٣).
(٦) الفلك المشحون (ص: ١٢٢).

وقال الشعراني في كتابه «تنبيه المُغترين»[1]: «... ولو أن أحدًا فعلَ في هذا العصر لكنتُ دللتُ الإخوان على مطالعة مؤلَّفه، وكنتُ لم أتعبْ نفسي في تأليف هذا الكتاب؛ لأنه يصيرُ حينئذ لا فائدةَ فيه».

ومرَّ معنا خبرُ ابن مجاهد، والدارقطني.

وقال القنوجي إنه لو وقف على كتابٍ في النار لما ألَّف كتابه[2].

وفيه أيضًا عدم تكرار الجهود وإضاعة الوقت.

* * *

وبعدُ: فقد قال العلامة المفسِّر المعلِّمُ عبدالحميد الفراهي:

أعـوذُ بـاللهِ العظيمِ الإفضـالْ ... الغافرِ الـذنـبِ الشديدِ الأنكـالْ
مِـنْ همـزاتِ النفسِ ذاتِ الإيغالْ ... ونـفـثـاتِ كـلِّ بـاغٍ محـتـالْ
وسـطـواتِ كـلِّ طـاغٍ مختـالْ ... وفـتـنـةِ الجـبـنِ وبـلـبـالِ البـالْ
وفـتـنـةِ الحـرصِ وطـولِ الآمـالْ ... وفـتـنـةِ الأهـلِ ومـالٍ ميّـالْ
وفـتـنـةِ الـدنـيـا كـرقـراقِ الآلْ ... و(فـتـنـةِ الـعـلـمِ) وزيـغِ الأقـوالْ
وفـتـنـةِ الجـهـلِ وسـوءِ الأعـمالْ ... وفـتـنـةِ الشيطانِ رأسِ الـضـلالْ
وفتنةِ الـغـاوي المسيحِ الـدجّـالْ ... وكـلِّ طـاغـوتٍ إمـامِ الجُـهـالْ[3]

* * *

(١) (ص: ١٥).
(٢) انظر: يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار (ص: ٧).
(٣) ديـوان المعلِّـم عبدالحميـد الفراهـي (ص: ١). وختـم هـذا بقولـه: بحرمـة محمدٍ والآل.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

وبعد: فقد كانت لنا في الفصلين السابقين إطلالة على موضوعين مهمين، هما كيفية تحصيل العلم، ثم الأخلاق الواجبة على مَن انتسب إلى العلم وعُـدَّ من أهله.

ودرج البحثُ على ذكر أقوال العلماء والأدباء والشعراء، وهي ناطقة معلِّمة مفهِّمة، لا جرم لم يكن هناك كثير من التعليق، وحشدُها تعليقٌ كافٍ.

والعلم والأخلاق مرتبطان، لا ينفك أحدُهما عن الآخر، ولا يعد عالمًا مَن لم يأخذ بأخلاق أهله، ولم يتحلَّ بحلية العمل.

والعلمُ له طرقه ومسالكه وأدواته، وللأخلاق العلمية معاقد وقواعد، ومَنْ عرف تلك الطرق والمسالك والأدوات والمعاقد والقواعد جاء في الصفوف الأولى المرتجاة في حياة الأمة اليوم، وبعد اليوم، وكان له نورُه الذي يسعى به.

ونسأل الله العلم النافع، والعمل الرافع، والنور الساطع.

وصلى الله وسلم على معلِّم الناس الخير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

مصادر الفصل الثاني

١. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٤-١٩٧٤).

٢. الإجازات الهندية وتراجم علمائها، جمعَها واعتنى بها: عمرُ بن محمد سراج حبيب الله، دار المحدِّث، الرياض، ط ١ (١٤٤٣-٢٠٢٢).

٣. إرغام أولياء الشيطان، للمناوي، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ط ١ (١٩٩٩).

٤. أزهار الحديقة، لأبي الهدى الصيادي، طبعه: عبدالحكيم عبدالباسط السقباني في دمشق، ولم يذكر تاريخ النشر.

٥. أسباب التأليف من العاجز الضعيف، ليوسف النبهاني (آخر كتابه «جامع كرامات الأولياء»)، المطبعة الميمنية، القاهرة (١٣٢٩).

٦. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمود عبدالوهاب فايد، دار الفكر، بيروت (١٤٠٩-١٩٨٩).

٧. إعانة الطالبين على حلِّ ألفاظ فتح المعين (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين)، لأبي بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، ط١ (١٤١٨-١٩٩٧).

٨. أعلام التراث الإسلامي، لعبدالفتاح الحلو، شركة مكتبة عكاظ، جدة - الرياض، ط ١ (١٤٠١ - ١٩٨١).

٩. الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥ (٢٠٠٢).

١٠. البحر المحيط، لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت (١٤٢٠).

١١. بغية الوعاة، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.

١٢. تاريخ جرجان، للسهمي، طبع تحت مراقبة محمد عبدالمعيد خان، عالم الكتب، بيروت، ط ٤ (١٤٠٧-١٩٨٧).

١٣. التحدُّث بنعمة الله، للسيوطي، تحقيق وتعليق: عبدالحكيم الأنيس، دار اللباب، إسطنبول، ط١ (١٤٤٣-٢٠٢١).

١٤. تدريج الأداني إلى قراءة شرح السعد على تصريف الزنجاني، لعبدالحق سبط العلامة النووي الثاني، دار إحياء الكتب العربية، مصر.

١٥. تنبيه المُغترين، للشعراني، ضبطه وعلق عليه عبدالجليل العطا، دار البشائر، دمشق، ط٧ (١٤٢١-٢٠٠١).

١٦. تهذيب اللغة، للأزهري الهروي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ (٢٠٠١).

١٧. ثبت شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي، تحقيق: أمجد رشيد، دار الفتح، عمّان، ط١ (١٤٣٥- ٢٠١٤).

١٨. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١ (١٤١٤-١٩٩٤).

١٩. الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، للسخاوي، تحقيق: إبراهيم باجس عبدالمجيد، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤١٩-١٩٩٩).

٢٠. حلية الأولياء، لأبي نُعيم، مطبعة السعادة، مصر.

٢١. ديوان المعلِّم عبدالحميد الفراهي. نشره بدر الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية، الهند (١٣٨٧).

٢٢. ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب، تحقيق: عبدالرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١ (١٤٢٥-٢٠٠٥).

٢٣. الروض النضير في أوجه الكتاب المُنير، لمحمد بن أحمد المتولي الشافعي الخلوتي (ت: ١٣١٣)، مخطوط في مكتبة مكة في مكة.

٢٤. روضة العقلاء، لابن حبّان، تحقيق: محمد عايش، دار أروقة، عمّان، ط١ (١٤٣٩-٢٠١٧).

٢٥. الزهد، للمُعافى بن عمران الموصلي، تحقيق: عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١ (١٤٢٠-١٩٩٩).

٢٦. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٤-١٩٩٣).

٢٧. سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٨. صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، ط١ (١٣٨٩-١٩٦٩ فما بعد).

٢٩. الطبقات الصغرى، للشعراني، مكتبة القاهرة، القاهرة، ط ٣ (١٤١٠-١٩٩٠).

٣٠. طبقات الصوفية، للسلمي، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ (١٤١٨-١٩٩٧).

٣١. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت، ط ١ (١٩٦٨).

٣٢. العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢ (١٤١٤).

٣٣. فضيلة الإنسان بالعلوم، للراغب الأصبهاني، رسالة منشورة في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، العدد (٢٢)، شوال (١٤٢٢)، ديسمبر (٢٠٠١).

٣٤. الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون، لابن طولون نفسه، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤١٦-١٩٩٦).

٣٥. كشف الظنون لحاجي خليفة، مصورة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

٣٦. لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، لابن فهد، طبعة القدسي.

٣٧. لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار، لأبي القاسم علي بن المُحسّن التنوخي، تحقيق: علي حسين البواب، دار عالم الكتب، الرياض، (١٤١٣-١٩٩٣).

٣٨. مجلة الرسالة. مصر، ضمن (المكتبة الشاملة).

٣٩. المجموعة النفيسة، لعبدالكريم الدَّبَان التكريتي، عُـني بها: عبدالحكيم الأنيس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ط١ (١٤٣٧-٢٠١٥).

٤٠. المحمّدون من الشعراء وأشعارهم، للقفطي، تحقيق: حسن معمري، دار اليمامة، الرياض، (١٣٩٠-١٩٧٠).

٤١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٢-١٩٩٢).

٤٢. نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر = الإعلام بمَنْ في تاريخ الهند من الأعلام، لعبدالحي الحسني، دار ابن حزم، بيروت، ط١ (١٤٢٠-١٩٩٩).

٤٣. هُدى الساري ضمن «فتح الباري»، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت، (١٣٧٩).

٤٤. الوافي بالوفيات، للصفدي، تحقيق: مجموعة من المُحقِّقين العرب والمستشرقين، دار النشر فرانز شتاينر، شتوتغارت، ط٣ (١٤١٢-١٩٩٢).

٤٥. وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٤٦. يقظة أولي الاعتبار ممّا ورد في ذكر النار وأصحاب النار، لصدِّيق حسن خان، صححه وعلق عليه زكريا علي يوسف، مطبعة الإمام، مصر (د. ت).

المحتويات

الافتتاحية ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول: طريق العلم ٩

المطلب الأول: طرق تحصيل العلم كما جاء في نصائح العلماء البارعين، وقرائح الأدباء المبدعين ١١

المطلب الثاني: منهج الطلب كما بيَّنه عددٌ من العلماء المتبحرين ٣١

مصادر الفصل الأول ٥١

الفصل الثاني: أخلاق العلم ٥٩

١- الإنصافُ والاعترافُ بفضل ذوي الفضل ٦٠

٢- إحسانُ القول في الآخرين ٦١

٣- عدمُ التعصُّبِ للنفس ورؤيةِ فضلها على الآخرين ٦٦

٤- حفظُ اللسان، واحترامُ الأقران ٦٧

٥- ألا يترك الإنسانُ إلا أثرًا طيبًا ٦٨

٦- رعايةُ حقِّ المخالف بعد موته ٧٠

٧- النظر إلى الآخرين بعين المحبة والشفقة والرحمة ٧٢

٨- عدمُ اعتدادِ الباحثِ الزائدِ ببحوثِهِ وتآليفِهِ وأعمالِهِ العلميةِ، والنظرِ إلى أعمال الآخرين بعين النقص والازدراء مِنْ غير إنصاف ٧٣

٩- أن يكون التأليفُ ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، والشكرِ لله على ما أعانَ وألهمَ، وإرادة انتفاع الأمّة بذلك، لا للتباهي والترفعِ والترزُّقِ ومسابقةِ الآخرين ٧٦

١٠- الاعتذار للعلماء والمؤلِّفين، ومن ذلك: الإحالة على سقم النسخ ٧٨

١١- معرفةُ ما لدى الآخرين مِنْ حُججٍ وأدلةٍ ووجهاتِ نظر ٧٩

١٢- عدمُ المنازعة في العمل العلمي مِنْ تأليف أو تحقيق، ولا سيما الثاني ٨٠

الخاتمة ٨٣

مصادر الفصل الثاني ٨٥